
ملحمة الصمود

ملحمة الصمود

تأليــف م. أحمد الشحات

الطبعة الأولى / ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

رقم الإيداع ٢٨٤١٧/٢٠١٧م



01140479897

dar.alshabab@yahoo.com

دار الشباب



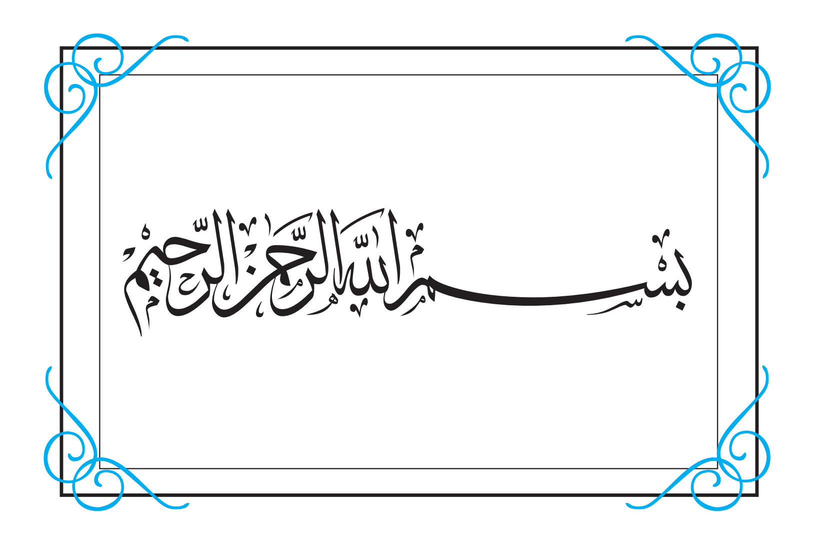
ملحمة الصمود

رسائل للشباب من وحي قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ

تأليف

أحمد الشحات




بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، أما بعد:

فقد وردت قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في القرآن الكريم فيما يزيد على مائة آية متصلة، تسلسلت الآيات في عرض أحداثها بطريقة مشوقة وسهلة وهادفة، تضع الأحداث في سياق مترابط ومتكامل، يحرك مشاعر القارئ، ويأخذ بتلابيب قلبه.

والسورة مكية، نزلت في تلك الفترة الحرجة من حياة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة الذين كانوا معه في مكة، ففي الوقت الذي كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعاني فيه من الوحشة والغربة بعد موت زوجته خديجة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وعمه أبي طالب، نزل القرآن في تلك الحال ليقص على النبي الكريم قصة أخيه يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو يعاني **صنوفًا من المحن والابتلاءات**.

"محنة كيد الإخوة، ومحنة الخوف والترويع في قعر الجب، ومحنة الرق والعبودية، ومحنة الإغراء وسطوة الشهوة في بيت امرأة العزيز، ومحنة السجن بعد رغد العيش في القصر، ثم محنة النصر والتمكين وهو يتحكم في أقوات الناس، وفي يده خزائن طعامهم، وأخيرًا محنة المشاعر الإنسانية وهو يواجه إخوته الذين ألقَوه في الجب، وكانوا السبب المباشر لكل هذه المحن والابتلاءات التي تعرض لها"

وبما أن القصة حقيقية، فقد جسدت واقع الإنسان والبيئة والمجتمع بكل دقة وواقعية، وبالتالي تصلح القصة كنموذج لتشريح حالة الإنسان، وهو يخوض رحلة اكتشاف الذات بما فيها من نوازع الخير والشر، ثم تأمُّل ردود أفعاله وهو يواجه مشاكل الحياة بكل قسوتها وتقلبها وعنفوانها.

لم تكتف القصة بذلك، بل كشفت لنا طبيعة النفس البشرية بكل أهدابها وكهوفها ومغاراتها، وأثبتت أن:

"النفس كالوعاء يمتلئ بما يملؤه به صاحبه"

فعرضت صورًا من نقاء النفس البشرية، وكيف يمكن أن تكون زكية طاهرة، وعرضت كذلك صورًا أخرى تمثل أدنى دركات القبح والسفول.

لتبقى التباينات والتناقضات باقية ما بقيت الحياة، ولا يملك سليم الفطرة مستقيم السلوك إلا الانجذاب التام للنماذج الطاهرة، والنفرة الكاملة من النماذج القبيحة.

أما البطل الرئيس للقصة فهو شاب يافع بدأت معنا السورة بذكر تجربته منذ أن كان طفلًا صغيرًا، ولم تتركنا إلا وهو وزيرٌ مرموقٌ، وكانت الأحداث الأكثر سخونة في حياته تتركز في فترة عنفوان شبابه، وهي المرحلة التي تعرض فيها لأكبر فتنة من الممكن أن يتعرض لها شاب في حياته، **وهي فتنة إغراء زوجة مسئول كبير، عرضت نفسها عليه في ظروف استثنائية، واحتياطات محكمة، تجعل الوقوع في وحلها أسهل ما يمكن.**

وقد تعرض بطل القصة لمشاكل معقدة منذ نعومة أظفاره، كانت كفيلة لأن تُخرج لنا شخصية مشوهة، ناقمة على المجتمع، معتدية على الآخرين، تحطم نفسها وتدمر مَن حولها، **ولكن كانت المفاجأة:**

"أن الشخصيـة التـي أخرجتهـا هـذه المواقـف الأليمـة، شخصيـة سويـة، متزنـة، هادئـة، إيجابيـة، تنشـر الخيـر والجمـال، وتلتـزم بالعفـة والنقـاء، وتعطـي المجتمع أفضل ما لديها، في الوقت الذي حرمها المجتمع من أبسط حقوقها"

كان مـن الممكـن أن يتحـول بطـل القصـة إلى قنبلـة موقوتـة تفتـك بوطنهـا ومجتمعها، أو عـلى الأقل تثأر لنفسـها، وتنتقم من خصومهـا، عندما تتمكن من أقواتهـم وأرزاقهم، ولكنه لم يفعل، رغم أن خصومه كانوا سببًا لكل بلاء وشقاء تعرض له في حياته،

فقد عانى البطل من:

١- تفـكك أسري مدمر، وهو مـا زال في أحضان أبيه، فمع حب أبيـه الشـديد له، إلا أن حسـد إخوته كان لـه بالمرصاد إلى أن تمكنوا منه، فألقوا به في البئر وكاد أن يلقى حتفه في قعره.

٢- ثم بِيع رقيقًا وأصبح مملوكًا بعدما كان حرًّا طليقًا.

٣- ثم شـب عن الطوق وصار شابًّا يافعًا فأرادت الزوجة الفاتنة أن توقعه في الفاحشة.

٤- وعندما رفض أودع في السـجن لسـنوات عـدة بعد أن لوثت المرأة سمعته، واتهمته في نقائه، الذي كان أبرز ما يميزه.

فهل رأيتم معاناة مكتملة الأركان، متنوعة الألوان، مثل المعاناة التي تعرض لها ذلك البطل!! وحتى لا يتسرب اليأس والإحباط إلى قلوبنا -خصوصًا ونحن نعاني في مجتمعاتنا من العديد من الأزمات والمشكلات العامة والخاصة-، **يجب ألا ننسى أن هذا البطل الممتحن كثير الابتلاء، هو نبي مصطفىً من الله** عَزَّوَجَلَّ، **وبالطبع فالله يحب أولياءه وأنبياءه، ولا يرضى لهم أن يتألموا أو يتعرضوا للإيذاء، ولكن أحيانًا يكون القليل من الألم موصلًا للمزيد من النعم**، ولله في ذلك حكم عديدة يسهل إدراك بعضها بقليل من التأمل، ومن هذه الحكم ما عبر عنه القرآن بلفظ التمايز، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران:١٧٩).

هذا الشاب البطل هو نبي الله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي وصفه نبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بقوله: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم**»، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سُئل رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أي الناس أكرم؟ قال: «**أكرمهم**

عند الله أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم. قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»[(١)].

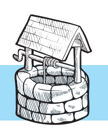
والمتأمل في هذه القصة يجد أن الواقعية تتفجر منها بصورة ظاهرة لا مثيل لها، فمن إحدى جوانب الواقعية المهمة في هذه القصة أنها تقلبت بين معاني الفرح ومعاني الحزن، ومواقف النجاح ومواقف الإخفاق، وهذه إحدى أهم المعاني التي يجب أن يعيَها الشباب عن حقيقة الدنيا، أنها لا تستقيم لأحد على حال، ومن الطبيعي أن تتأرجح فيها ظروف الإنسان النفسية والاجتماعية والمادية،

”فالدنيا ليست دار نعيم حتى يسلم الإنسان فيها من وقوع المصائب والمتاعب“

ولكن المحك هو: أن ينجو الإنسان بنفسه وسط هذه الأعاصير ليصل إلى بر الأمان، دون أن تؤثر فيه المصائب بالسلب فتوقعَه في الجحود والنكران، أو تؤدي به إلى التذمر والتمرد على القدر،

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧٤).



ودون أن تؤثر فيه النجاحات بالسلب أيضًا، فينسى نعمة ربه ويغتر في نفسه، ويظن أن القوة والحول بيده.

إن المتمعن في هذه القصة العظيمة من قصص القرآن يتلمس شحنات نفسية من أبطال القصة، ومن بعض كلماتها وإشاراتها؛ فكلمة «**الصبر**» مثلًا تجدها حاضرة دائمًا على لسان يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، **والاستعاذة من الظلم** على لسان يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، **وتوكيد الإيمان** على لسان إخوته، ولو نظرنا من منظورِ علم النفس لوجدنا سلوكًا متباينًا من شخصياتها، كالتبرير والإسقاط والكذب والغيرة والقلق والإحساس بالذنب، ونحو ذلك من الحيل النفسية اللاشعورية التي يلجأ إليها الإنسان في معاملاته النفسية، والتي يسميها علم النفس «آليات عقلية»، يغالب بها المرء إحباطه وقلقه وتوتره الناشئ عن فشله،وهو يحاول تحقيق رغباته[١].

وباختصار فإن قصة نجاح هذا البطل:

تعد قصة نجاح شاب في ظل حياة قاسية، عنيفة في مواقفها، أليمة في وقائعها، ومع ذلك كانت الجولة الأخيرة ساطعة النجاح، فائقة النتائج، على المستوى العملي، والأخلاقي، والإنساني، رغم ما واجهه ذلك الشاب من عقبات وصعاب وعراقيل.

(١) سيكلوجية القصة في القرآن، نقرة التهامي، (ص٥١٦).

وأخيرًا..

فإن قصة كفاح هذا الشاب قابلة للتطبيق وصالحة للاقتداء، ربما يكون الفارق الوحيد بين تجربته وبين تجارب النجاح المعاصرة يكمن في سر تفوق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في أنواع من العلوم لم يتعلمها في جامعة، ولم يدرسها في أكاديمية، ولكن الله علمه من عنده مكافأة له على صبره واعتصامه وتوكله، فقد اجتهد الشاب فيما هو متاح لديه، فأنعم الله عليه بأنواع من العلوم والمهارات والمعارف مكنته من النجاح في الحياة العملية، بما عجز عنه رجال الدولة وأساطين الحكم.

وقد بدأت القصة بالرؤيا التي قصها يوسف على أبيه، فينبؤه أبوه بأنه سيكون له شأن عظيم، وينصحه بألَّا يقصها على إخوته؛ كي لا يثير حسدَهم فيغريهم الشيطان به فيكيدوا له، ثم تسير القصة بعد ذلك، وكأنما هي تأويل للرؤيا ولما توقعه يعقوب من ورائها حتى إذا اكتمل تأويل الرؤيا في النهاية أنهى القرآن سياق القصة.





قبل البدء في قراءة مشاهد القصة والتعمق في معانيها، هيا بنا نضع لأنفسنا مجموعة من الأهداف المحددة التي من المفترض أن نحققها -بإذن الله- بعد الانتهاء من قراءة الكتاب:

١ هدفي أن أرتبط أكثر بالقرآن العظيم حفظًا وفهمًا وتدبرًا وتطبيقًا.

٢ هدفي أن أتعرف عن قرب على شموس البشرية، ونجوم العالم، من الأنبياء والمرسلين، والصحابة، والتابعين، ومن سار على دربهم من العلماء والدعاة والمجاهدين.

٣ هدفي أن أعرف المداخل الإبليسية التي عن طريقها يتمكن من إغواء النفس البشرية.

٤ هدفي أن أتعرف على نفسي جيدًا، لأحمِلَها على الأخلاق الحميدة من الصدق والصفح والحياء والغيرة والكرم وغيرها، وأن أباعدبينها وبين الأخلاق الرديئة مثل الكذب، الغش، الخيانة، وغيرها.

٥ هدفي أن أعرف خطورة وعقوبة الذنوب والمعاصي، حتى لا أقلل من شأنها أو أهون من آثارها.

٦ هدفــي أن أجتهد في حماية نفسي من الوقوع في الشهوات لأنها تدمر صاحبها وتهلكه، وفتنة النساء من أشد الفتن ضررًا على الإنســان، وفتكًا بالمجتمعات، كما سيتضح لنا من خلال مشاهد القصة.

٧ هدفــي أن لا أمل مــن المداومة على التوبة، حتى وإن تكرر الذنــب؛ لأن نسيــان التوبــة أو التكاسل عنهــا ذنب يفوق جُرمه كل ذنب.

٨ هدفــي أن يظل بــاب الأمل مفتوحًــا، وأن لا يعرف اليأس لحياتــي طريقًا؛ لأن المؤمن لا ييأس من فرج الله ورحمته مهما كانت الصعوبات.

٩ هدفي أن أتعلم فقه التعامل مع البلاء والمحنة، لأرى كيف يمكن أن يُولد النجاح من رحم العثرات، وكيف يأتي النور من جوف الظلمات.

١٠ هدفي أن أؤمــن بالقضاء والقدر، وأن أوقن بـ«أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا».

فلننطلـق الآن لنتعرف على فصول هذه التجربة الفريدة من خلال المشاهد التالية:

- **المشهد الأول:** يوسف في بيت أبيه.
- **المشهد الثاني:** يوسف في قعر البئر.
- **المشهد الثالث:** يوسف في بيت العزيز.
- **المشهد الرابع:** يوسف في السجن.
- **المشهد الخامس:** يوسف من السجن إلى الوزارة.
- **المشهد السادس:** إخوة يوسف والمهمة الصعبة.
- **المشهد السابع:** لقاء الأخوين.
- **المشهد الثامن:** إخوة يوسف في مواجهة أبيهم مرة أخرى.
- **المشهد التاسع:** يوسف والصفح الجميل.
- **المشهد العاشر:** نهاية المأساة ولقاء الأحبة.



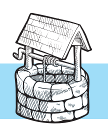

المشهد الأول
١


يوسف في بيت أبيه




محتويات
المشهد





المشهد كما وصفه القرآن

قال تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ (يوسف:١-١٤).

تفاصيل المشهد



بـدأت فصول هذه القصة برؤيا رآها يوسـف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ورؤيا الأنبيـاء وحي، إلا أن يوسـف وقتها كان صبيًّـا صغيرًا لم يوح إليه بعد، ولكنها رؤيا صادقة تأولها له أبوه يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأن الأحد عـشر كوكبًـا كناية عـن إخوتـه، وكانوا أحـد عشر رجلًا سـواه، والشـمس والقمـر كناية عـن أبيه وأمـه، وقد وقع تفسـيرها بعد عدة عقود من السـنين، وذلك حين رفع أبويه على العرش -وهو سريـره-، وإخوتـه بين يديه وخروا له سـجدًا، وقـال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقًّا.

وحينـما حكـى يوسـف هـذه الرؤيـا لأبيه **فهـم أنهـا تعني: خضـوع إخوته لـه، وتعظيمهم إيـاه تعظيمًا زائـدًا بحيث يخرون له سـاجدين إجلالًا واحترامًا وإكرامًـا**، فخشي يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يحـدِّث بهذا المنـام أحدًا من إخوته فيحسـدوه على ذلـك، فيبغون له الغوائل حسـدًا منهم له، ولهذا قال له: ﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ أي يحتالـوا لـك حيلـة يُرْدُونـك فيها، ولم ينـس يعقـوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يعلـم ولده الصغير درسًـا في شـكر

نعمـة الله والدينونة له بالفضل فبشره بأن الله سـيختاره ويصطفيه لنبوته ويعلمه من تأويل وتفسيرالرؤيا.

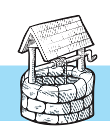
وإخـوة يوسـف الأحـد عـشر كانـوا مِـن أمٍّ غيرِ أم يوسـف وأخيه بنيامين، وقد جلسـوا ذات مرة يتناجون فيما بينهم أن أباهم يفضل يوسف وأخاه بنيامين عليهم في المعاملة وهم العصبة -أي الجماعة-، ولم يتركوا لأنفسهم فرصة للبحث عن إجابة شافية لهذا الاستشكال، فربما يكون ظنهم خاطئًا، وربما يكون قد صدر منهم -رغم أنهم الأكثر عددًا- ما يوغر صدر أبيهم عليهم أو غيرها من الأعـذار التي من المفترض أن يتباحثوها إذا توفر لديهم الإنصاف والرغبة الصادقة في الوصول إلى الحقيقة.

ولكـن العجـب أنهـم تجـاوزوا كل ذلـك، وانتقلـوا مبـاشرة للحديث عن **حلول إجرامية للمشكلة التي يعانون منها:**

١- فمنهم من اقترح قتل يوسف.

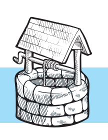
٢- ومنهم من اقترح إلقاءه في أرض بعيدة يهلك فيها أو يضيع.

٣- وأمثلهم طريقة -وليسـت بمُثلى- من اقترح أن يلقوه في قعر بئر مظلم، وكأنه جمع بهذا الاقتراح بين إبعاده عن أبيه مع عدم التورط في جريمة قتل لصبى صغير كما كان يقترح إخوته.



اتفقوا على الجريمة وأضمروها في أنفسهم، ولكن بقيت طريقة التنفيذ، فهم قطعًا لن يفصحوا لأبيهم عن نياتهم، ولكنهم يحتاجون إلى حيلة لطيفة يتوصلون من خلالها لأخذ يوسف من أبيه دون أن تثور حولهم شكوك أو اتهامات، فعرضوا عليه أن يأخذوه معهم للفسحة والتنزه، وتعهدوا بحفظه ورعايته خصوصًا بعدما أفصح لهم أبوهم عن تخوفه من أن يأكله الذئب في حين غفلة منهم، وفي نهاية المطاف نجحوا في إقناع أبيهم بحجتهم، فوافق على ذهابه معهم رغم كراهته ذلك، واستعد الإخوة للذهاب بيوسف لا ليرتع ويلعب ولكن لينفذوا معه جريمتهم الدنيئة التي بيتوها بليل.







رسائل من قلب الحدث

تتجلى في هذا المشهد من القصة عدة معانٍ أساسية، أبرز القرآنُ ملامحَها من خلال الآيات، فتجد إشارة عن القرآن وعن منزلته، وإشارة عن القصص القرآني وهدفه، وإشارة إلى الأمراض القلبية التي تعتري النفس البشرية وتفسد عليه علاقتها بربها، ثم إشارة إلى نوع من المشكلات التي من الممكن أن تنشأ داخل البيوت، وبين أفراد الأسرة الواحدة، وأنه رغم روابط الدم والقرابة بين الإخوة إلا أن البعد عن الله، والوقوع في أسر الهوى والشيطان، قد يمزق هذه الروابط، ويهدم هذه الوشائج.

إلا أن المعنى الأبرز في هذا المقطع من السورة يتمثل في:

"إرشاد البشر إلى عداوة الشيطان لهم"

وقد عبر القرآن عن هذه العداوة بالمعنى المباشر الواضح في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾، فهذه حقيقة ثابتة من حقائق الحياة الدنيا، مهما غفل عنها الغافلون، أو تناساها المفرطون، ثم أردف القرآن هذه الحقيقة بأخرى لا تقل عنها أهمية، وهي:

"أن الشيطان هو المحرك الأول لكل المعاصي والجرائم التي يرتكبها الإنسان"

فتسلطه عليه من خلال الوسوسة يفسد عليه قلبه وعقله.

وهنا ترى من خلال القصة أنه تسلَّط على إخوة يوسف بتزيين علاقة أبيهم بولده الصغير على أنها تمييز واضح، وظلم بين، مما تسبب في وقوع الغيرة والحسد في قلوبهم، هذه الغيرة أسلمتهم إلى التفكير في قتله والتخلص منه، ولأن هذه نتيجة قبيحة وسيئة وترفضها الطباع السوية،

" فقد أوقعهم في الأماني الغَرُور بأنهم سيتوبون بعد الانتهاء من الجريمة تحت غطاء حسن الظن بالله والأمل في عفوه "

من هنا كان التعرف على ملامح النفسية الإبليسية ومحاولة سبر أغوارها مطلبٌ مهمٌّ، وعاجل لكل إنسان يسير على ظهر هذه الأرض، وذلك لأن:

" الشيطان هو العدو اللدود للإنسان "

فما دام في المرء نَفَس يتردد؛ فإن الشيطان متربِّص له، مستعد للوثوب عليه، لذا فلا يليق بعاقل أن يغفل عن طبيعة عدوه، أو يجهل طريقة مَكْره، وإلا فسيقع فريسة سهلة في حبائل خداعه وكيده.

كما أن هذه المعرفة تزداد أهميتها وتتعاظم كلما كان الإنسان من أهل الإيمان والإسلام؛ لأن الشيطان قد فرغ من الكفار دفعة واحدة؛ وذلك بإخراجهم عن عبودية الرحمن إلى عبوديته مباشرة، وما ألطف تعليق **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **عندما ذُكر له أن اليهود تزعم أنها لا توسوس في صلاتها، فقال: وما يصنع الشيطان بالقلب الخراب؟**

بالإضافة إلى ذلك، ففي دراسة طبيعة نفوس الشياطين فائدة جليلة وهي: أنها تسهل طريقة التعرف على أوليائه من الإنس، وتيسر طرق الاهتداء إلى مكرهم وفسادهم، ومن ثمَّ معرفة وسائل مواجهتهم، خصوصًا وأن بعض الناس قد يبتليهم الله بأمراض قلبية هي من جنس أمراض إبليس، وعندها سيكون إيمان هؤلاء على خطر عظيم إذا لم يتداركوا أحوالهم، ويبذلوا الوسع في تهذيب نفوسهم.

ثم إن القرآن أفاض في ذكر صفات إبليس، وأفرد مساحة واسعة لفضح هذه النفس الخبيثة والتحذير منها، **فالشيطان هو داعية الفساد والفجور الأول**، قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا

لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف:٢٧).

وقال تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٦٨).

وهو يسعى دائمًا لنشر العداوة بين المؤمنين، قال تعالى:

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (يوسف:١٠٠). وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ (المائدة:٩١).

كما أنه يحرص على إيذاء المؤمنين، وإيقاع الضرر بهم،

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (المجادلة:١٠). وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ (ص:٤١).

ومن جرائمه مع الإنسان أنه يمنيه ويغرر به، قال تعالى:

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (النساء:١٢٠).

وقال تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (الإسراء:٦٤).

ومن صفاته الدنيئة الخيانة والغدر بالإنسان، قال تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (إبراهيم:٢٢). وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

(الأنفال:٤٨).



هذه هي الرسالة الأساسية في هذا الجزء من القصة،

"التعرف على ملامح النفسية الإبليسية ومحاولة سبر أغوارها"

إلا أن المشهد يمتلئ بأنواع من الحكم والعبر والدلالات، نذكر منها ما يلي:



١ القصص الهـادف:

قَالَ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾

(يوسف:٣)

فقصـص القرآن أجمل القصص وأحسـنه، وأكثره رقة ورقيًّا، ومـع ذلك فكثير من الشـباب يُعرض عن هذه الكنـوز ويهملها، وفي نفس الوقت يتلهف على ما دونها في القيمة والمنزلة والمكانة،

"فهذا الإقبـال الهائل من الشباب على الروايات والقصص والأفـلام يكشف عن حجـم الفراغ الفكري والإيمـاني الذي يعاني منه شبـاب هذا الجيل"

ومـا ذاك إلا لأننـا أعرضنـا عـن القصـص الـذي يهـدف إلى صـلاح القلوب والأخـلاق إلى غيرها من الكتابـات الغير مفيدة فضلًا عن القصص المبنية على الكذب والخيال، فضلًا عن الأفلام والمسلسـلات التي تدعو دعوة صريحة إلى شتى مظاهر الانحراف والانحلال من المخدرات والجنس والعنف وغيرها.

وقصص القرآن أحسـن مـن قصص غيره من جهة حسـن نظمه وإعجـاز أسـلوبه، ثـم بـما تتضمنـه مـن العـبر والحكـم والـدلالات

والفوائد، فكل قصص في القرآن هو أحسن القصص في بابه، وكل قصة في القرآن هي أحسن من كل ما يقصه القاص في غير القرآن[1].

لأن النفس تميل بحكم خلقتها في كثير من الأحيان إلى الترويح والتسلية، وهذا حق مشروع لها،

"لكن المشكلة تظهر عندما يتسلط علينا شياطين الإنس والجن، فيصورون لنا أن الترفيه والسعادة لا يكتملان إلا إذا اختلطت بهما الذنوب والمعاصي والموبقات"

ويربطون بينهما ربطًا وثيقًا كأنهما توأمين متلاصقين، **والحقيقة أن الذنوب والمعاصي لا ينتج عنها إلا الشقاء والتعاسة والألم**، حتى ولو كانت الصورة الظاهرة ضاحكة وسعيدة، إلا أن السعادة والحزن مركزهما في القلب، والقلب خلقه الله بطريقة معينة لا يمكن له أن يسعد سعادة حقيقية إلا إذا توافق مع طبيعة خلقته التي خلقه الله من أجلها، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٠٤)، بتصرف.

﴿فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ (طه:١٢٤-١٢٧).

فالقصص الحسن هنا لا يعني الرواية المغرقة في الخيال والوهم، ولا يعني كذلك القصة المنحوتة لتحاكي الواقع، فضلًا عن أن تعتمد على الكذب والغش والتدليس والخداع، إنما هي التاريخ والخبر وحقيقة ما كان، إنها مشاهد التاريخ في حركاتٍ وصورٍ وأصواتٍ.

فنجد أن البطل الحقيقي في القصص القرآني ليس هذا الإنسان بذاته الذي تدور به أو من حوله أحداث الخبر؛ **فالبطل هو القانون التاريخي المرتبط بعقيدة الإنسان وأخلاقه وسلوكه، والبطل هو هذا القانون الذي تظهر نتائجه في أقوال وأفعال الإنسان المؤمن أو الكافر في الجماعة التي يعبر عنها أو التي يعارضها.**

فالبطل مثلًا ليس يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأولاده، إنما هو «**الهداية**» في يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ و«**الحسد**» في أولاده، والبطل أيضًا ليس يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وامرأة العزيز؛ بل هو «**الطهارة والأمانة**» في يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، و«**الشهوة**» في امرأة العزيز، وهكذا في مختلف المواقف يكون الإنسان بهداية الإيمان أو بضلالة الكفر رمزًا لقانون يحكم[1].

---

(١) قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح، أحمد موسى سالم، (ص٢١٢)، بتصرف.

٢ أبوة حانية وبنوة بارة:

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ (يوسف:٤).

حوار راق بين ابنٍ وأبيه افتقده كثير من الأبناء، وغاب عن كثير من البيوتات في ظل السعي المحموم وراء متطلبات الحياة المادية، مع أن الاحتياجات النفسية والتربوية أهم بكثير من جمع الأموال، ورفاهية العيش، فكم من الأبناء اليوم عندما يتعرض لمشكلة أو يحتار في أمر من أمور حياته يلجأ إلى والديه بحثًا عن النصيحة الصادقة، والرأى الحكيم؛ لكي ينتفع بما لديهم من خبرة الحياة ونضج التجارب؟!

أسرنا تعيش اليوم أزمة مزدوجة:

١- أزمة غربة الأبناء عن الآباء وبحثهم عن مصادر أخرى يستلهمون منها النصيحة، ويفتحون لها قلوبهم بما تحمل من هموم ومشكلات، وغالبًا ما تكون هذه المصادر جماعة الأصدقاء والرفاق، أو مواقع النت وشبكات التواصل.

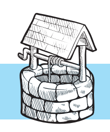
٢- وأزمة عجز الآباء عن مسايرة واقع أبنائهم وتفهم احتياجاتهم وثقافة عصرهم. والفجوة بين الجانبين تزداد مع تقدم العصر وانفتاح المجتمع، مما يستلزم دق ناقوس الخطر قبل أن يستفحل الأمر ويتأزم.

فتربية الأبناء ليست بالعملية السهلة، تلك التربية التي كانت تأتي من محصلة جهود جماعية، تتضافر فيها الأسرة مع المسجد مع المدرسة، لكي تجعل من النشء أفرادًا صالحين يعودون بالنفع على أنفسهم وعلى أوطانهم، **وعندما تتخلى** كل هذه الدوائر عن وظائفها **وتترك الأبناء** فريسة سهلة لوسائل الإفساد المرئية والمسموعة والمقروءة، **ويخفت دور المعلم** في المدرسة، **ويتلاشى دور المربي** في المسجد، وقبل ذلك **يغيب الأب أو الأم** عن المنزل، فيتربى الشباب في الأزقة، وعلى نواصي الطرق، **فلا نتعجب من ارتفاع معدلات الجريمة، وانحدار مستوى الأخلاق، وفشو الانحلال والبلطجة والفوضى**.

وقد يقول قائل: هناك بعض الأسر تبذل جهودًا هائلة في تربية أبنائها إلا أنهم عندما يشبون عن الطوق لا يسيرون على الطريقة السوية التي رباهم آباؤهم عليها؟! فما العمل عندئذ؟ وأين الخلل؟

نقـول لا بأس: عندها نكون قد أدينا ما علينا ويقضي الله أمرًا كان مفعـولًا، فنـوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يتمكـن من هداية ولـده وزوجته، قال تعالى واصفًا تلك اللحظة الحرجة: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (هود:٤٢-٤٣).

وكذلـك لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يتمكن من هداية زوجته، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ (التحريم:١٠)، ومحمـد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يتمكـن مـن هداية عمـه أبي طالـب، ونزل القرآن موضحًا تلك القضية في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص:٥٦)، مـع ضرورة استـمرار الدعـاء لهم بإخـلاص، وعـدم التواني عن التوجيـه والنصح بالطريقة المناسـبة، وبالأسـلوب الطيب، حتى يفتح الله قلوبهم، ويهديهم إلى أقوم السبل.

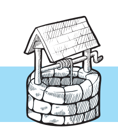


وقد ابتدأت قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بذكر رؤياه إشارة إلى أن الله هيأ نفسه للنبوءة فابتدأه بالرؤيا الصادقة كما جاء في حديث عائشة «أن أول ما ابتدئ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»[١].

وفي ذلك تمهيد للمقصود من القصة وهو تقرير فضل يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من طهارة وزكاء نفس وصبر، فذكر هذه الرؤيا في صدر القصة كالمقدمة والتمهيد للقصة المقصودة. وجعل الله تلك الرؤيا تنبيهًا ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعلو شأنه ليتذكرها كلما حلت به ضائقة فتطمئن بها نفسه أن عاقبته طيبة[٢].



(١) رواه البخاري برقم (٣)، ومسلم برقم (١٦٠).
(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٠٨).



٣ نصيحة الوالد الحكيم:

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (يوسف:٥).

أدرك يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بحسه وبصيرته أن وراء هذه الرؤيا شأنًا عظيمًا لهذا الغلام، لم يفصح هو عنه، ولم يفصح عنه سياق القصة كذلك، ولن تظهر بوادره إلا بعد حين، وكما يتضح من السياق **فحسن إدارة الوالدين للعلاقة بين الأبناء عليها عامل كبير في سلامة نفوسهم وتوازن سلوكياتهم**، وبسبب غياب هذا الوعي لدى الآباء والمربين تحولت بعض البيوتات إلى ساحة للصراع اليومي بين الإخوة بعضِهم البعض، وأحيانًا بين الأبناء والآباء.

لذلك أثبت يعقوب الخلل الذي عند إخوة يوسف مع لفت الانتباه لمصدر هذا الخلل وهو الشيطان،

"لأن الحسد داء إبليسي قاتل يدفع من ابتلي به للفتك بغريمه وتدميره"

فالحسد كان هو الدافع الرئيس لكي يقتل أحدُ ابني آدم أخاه، وهو الذي كاد يتسبب في قتل يوسف أيضًا. وهذا الداء العضال

هو أثر من آثار نزغ الشيطان ووسوسته، لذلك قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ملخصًا سبب الأزمة في نهاية القصة: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ (يوسف:١٠٠).

وقول يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا لابنه تحذير له مع ثقته بأن التحذير لا يثير في نفسه كراهة لإخوته لأنه وثق منه بكمال العقل، وصفاء السريرة، ومكارم الخلق. ومن كان حاله هكذا كان سمحًا، عاذرًا، معرضًا عن الزلات، عالمًا بأثر الصبر في رفعة الشأن، لذلك عطف قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ (يوسف:٦) على تحذيره من قص الرؤيا على إخوته إعلاما له بعلو قدره ومستقبل كماله، كي يزيد تمليا من سمو الأخلاق فيتسع صدره لاحتمال أذى إخوته، وصفحًا عن غيرتهم منه وحسدهم إياه ليتمحض تحذيره للصلاح، وتنتفي عنه مفسدة إثارة البغضاء ونحوها، حكمة نبوية عظيمة وطبًّا روحانيًّا ناجعًا[1].

وفي هذه الآية يَبرز ملمحٌ عجيبٌ من ملامح الإيمان بالقدر، فيعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ خاف من أبنائه على يوسف إذا هم علموا بهذه الرؤيا التي لا تحتاج إلى عناء في تفسيرها، ومع التزام يوسف

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢١٤، ٢١٥) باختصار.



بنصيحة أبيه في عدم إخبار إخوته بالرؤيا التي رآها إلا أنه أصابه منهم ما أصابه، لأن الحسد قد تمكن من قلوبهم من الأساس، فلم يكونوا في احتياج لأسباب أخرى تحرضهم على يوسف أو تهيجهم عليه، لذلك..

"فلابد للإنسان أن يربي نفسه على الأخذ بالأسباب دون أن يتعلق بها، فالإنسان كما هو مأمور بالأخذ بالأسباب، مأمور بأن يعلق قلبه بمسبب الأسباب عَزَّوَجَلَّ"



٤ الغيـرة المهلكـة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ (يوسف:٧-٨).

ابتدأ القرآن سياق القصة بالتأكيد على أن قصة يوسف مليئة بأنواع العبر والدروس لمن تأملها وحرص على اغتنامها، وفي ذلك إثارة للحس، وتجييش للمشاعر في أن تتلقى كل كلمة من كلمات القصة بالوعي التام، والتدقيق الشديد.

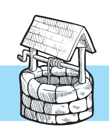
وقد كان الدرس الأول يدور حول **الجلسة الشيطانية** التي جلسها إخوة يوسف مع أنفسهم، **تلك الجلسة** التي حرض فيها بعضهم بعضًا، واستقوى كل واحد منهم بأخيه، في مرثية من مرثيات الحزن والمظلومية، لم ينقصها إلا البكاء واللطم والعويل، ولكن كان هناك ما هو أفظع وأشد، فقد كانت قلوبهم تغلي كالمِرجل بسبب الحقد والحسد الذي ملأ قلوبهم، وأعمى أبصارهم.

"والعجيب أن إخوة يوسف لم يذكروا أن أباهم كان يظلمهم، أو أنه كان يحرمهم من حقوقهم، أو أنه كان يفرق بينهم حسب الهوى ـ وحاشاه من ذلك ـ ولكنهم فقط رأوه يحب يوسف أكثر منهم، فأملت عليهم أنانيتهم أن هذا ظلم، وأنهم أحق منه بهذه المنزلة"

ولماذا يتصورون أنهم أحق؟!

"في زعمهم لأنهم عصبة!! فقد ظنوا أن كثرتهم وحدها شافعة لهم فيما يطمعون فيه من منزلة لا يستحقونها، وقد غفلوا أن يوسف أسر قلب أبيه بسمو خلقه، وحسن سلوكه، وأنه لا دخل للمعايير المادية في وصوله لهذه المرتبة عند أبيه"

ويجوز أن تكون دعواهم أن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأخاه أحبُّ إلى يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ منهم دعوى باطلة من الأساس،أثار اعتقادها في نفوسهم شدة الغيرة من أفضلية يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأخيه عليهم في الكمالات وربما سمعوا ثناء أبيهم على يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأخيه في أعمال تصدر منهما أو شاهدوه يأخذ بإشارتهما أو رأوا منه شفقة



عليهما لصغرهما ووفاة أمهما فتوهموا من ذلك أنه أشد حبا إياهما منهم توهمًا باطلًا.

ويجوز أن تكون دعواهم مطابقة للواقع وتكون زيادة محبته إياهما أمرا لا يملك صرفه عن نفسه لأنه وجدان، ولكنه لم يكن يُؤثِرهما عليهم في المعاملات والأمور الظاهرية ويكون أبناؤه قد علموا فرط محبة أبيهم إياهما من التوسم والقرائن لا من تفضيلهما في المعاملة فلا يكون يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مؤاخذًا بشيء يفضي إلى التباغض بين الإخوة(١).



(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٢١)، بتصرف.

٥ العقــوق الفــج:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾

(يوسف:٨).

أيُّ جرأة وقحة دفعتهم إلى اتهام أبيهم، وهو كبير السن، عظيم القدر، واسع الصفح، بأنه على ضلال، وأكدوا مقصودهم بوصفهم لضلاله بأنه مبين، أي لا يحتمل الظن، ولا يتطرق إليه الشك، فمن شدة جرأتهم وسوء أدبهم أنهم وصفوا ما عليه أبوهم بأنه ضلال لا يختلف عليه اثنان، لوضوحه وجلائه، مع أنهم لا يخفى عليهم أن أباهم نبيٌّ لا يمكن أن يتلبس بما يزعمونه أنه ضلال.

ولكن مرض الحسد أشبه ما يكون بالمخدر الذي يغيِّب العقل والقلب، فحسدهم ليوسف جعلهم يتوهمون الأشياء على خلاف حقيقتها، فأعجبوا بأنفسهم واغتروا بها، وأساؤوا الظن بأبيهم، وتعدوا عليه في غيبته بالألفاظ النابية، ونعتوه بالصفات القبيحة.

وعند المقارنة بين أدب يوسف مع أبيه، وبين سوء أدب هؤلاء الإخوة، نلمح سببًا من أسباب تفضيل يعقوب ليوسف عليهم..

"لأن الخلق الكريم، والسلوك الحميد يجلب للإنسان المحبة والمنزلة في قلوب الخلق، بخلاف الأخلاق السيئة والطباع المنفرة، فإنها تستجلب لصاحبها الكره والبغض عند الناس"

ومِن أحق الناس بالأدب الراقي والخلق العالي الأبوان؛ لما لهما من عظيم الفضل والمكانة، ولا أدل على ذلك من أن يقرن القرآن بين أصل من أهم أصول الإيمان وهو شكر الله تعالى، وبين شكر الوالدين، قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (لقمان: ١٤).

وقد انتشرت صور عقوق الوالدين في زماننا بشكل مرعب، وهذا الأمر له كثير من الأسباب، وقد يكون أحد أسبابه نابع من تصور أحد الأبناء أن والديهم يفاضلون بين أبنائهم في الحقوق والامتيازات، ثم يبنون على هذا الوهم أحقادًا تجاه إخوتهم وغضبًا تجاه والديهم، ربما يتحول إلى عقوق مع تكرار المواقف وتعدد المشكلات.



٦ اقتراح شيطاني:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾

(يوسف:٩)

الشيطان قاسٍ جدًّا وعنيف جدًّا، لا يوحي إلا بالشر ولا يوسوس إلا بالفساد، وكل ما تولد عنه له نفس الصبغة، فكل المعاصي والشهوات والكفر والإجرام عليهم نفس الظلمة وفيهم نفس القسوة، وصدق الله إذ يقول: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ (البقرة:٢٦٨). وقال تعالى: ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (النساء:٦٠).

تخيل معي!!

عصبة بلغت أحد عشر رجلًا بالغًا يجتمعون على طفل صغير لكي يقتلوه أو يطرحوه أرضًا، وهذا الطفل هو أخوهم الصغير!! كيف تحملت نفوسهم هذه الغلظة؟! وكيف غابت عنهم عقولهم وهم يمارسون هذا الإجرام؟! لا تتعجب من ذلك **فالوسوسة الشيطانية لها على النفس أثر يفوق أثر السحر**.

ولا تتعجب أيضًا من عجائب صفحات الحوادث التي تمتلئ بالفظائع والجرائم، فها هنا شيطان قطع على نفسه وعدًا من قديم فقال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ (الأعراف:١٦-١٧) وأقسم قائلًا: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ (ص:٨٢-٨٣).

وهذه الغلظة والوحشية أثر من آثار مرض الحسد، الذي من الممكن أن يدفع الإنسان لارتكاب أفحش الجرائم وأفظعها، وهو في عمىً وغفلة عما يقوم به ويفعله، لذا **فالإنسان الحصيف الذي يخشى على نفسه الهلاك يسدُّ على النفس المداخل التي يتسلل من خلالها الشيطان لكي يلقي في القلب بذرة الحسد، والتي من أهمها رؤية كمال النفس، وتعويد الطبع على المقارنة مع الآخرين، والنظر إلى ما في أيديهم من نعم**، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ (النساء:٥٤)، وقال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف:٣٢).

٧ التفكير الأعوج:

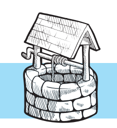
قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾

(يوسف:٩)

عجبًا للطريقة التي يفكر بها إخوة يوسف!!

- كيف سيخلو لهم وجه أبيهم، وهم عنده في موضع التهمة لعلمه اليقينيِّ بحسدهم السابق له؟!
- كيف سيخلو لهم وجهه، وقد حرموه فلذة كبده وثمرة فؤاده؟! فلا هم نالوا رضا أبيهم، ولا هم تركوه مع أبيه، ومن استعجل شيئًا قبل أوانه عوقب بحرمانه.

وفي واقع الناس اليوم: نسمع عن زوجة تقتل زوجها من أجل أن يخلو لها وجه عشيقها، فيودَعا في السجن طول عمرهما، دون أن يحققا ما يريدانه!! ونسمع عن سارق يقتل رجلًا من أجل الاستيلاء على ماله، فلا يتمتع بالمال وربما حُكم عليه بالإعدام، والأمثلة على ذلك كثيرة، **فالقاعدة في ذلك أن المعتدي غالبًا ما يجني نقيض قصده، وهذه سنة مطردة.**



وهـذه الطريقة المعوجة في التفكير هي أثر من آثار الوسوسـة الشـيطانية، لأن أحد أهم وسائل الشـيطان في غواية الإنسان هي **التخييل والتزيين**، فيصور الباطل حقًّا، والقبيح حسنًا، والفاسد صالحـًا، ويغري الإنسـان بذلك حتى يقع في حبائله، ويسـقط في مسـتنقع مكره وكيده، قال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ (العنكبـوت:٣٨). قـال تعـالى: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (النمـل:٢٤). وقـال تعـالى: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النحـل:٦٣). وقال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام:٤٣).



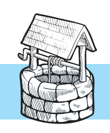
٨ خدعـة إبليسيـة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمًا صَٰلِحِينَ﴾
(يوسف:٩)

فعلى الرغم من أن اقتراح القتل كان اقتراحًا شيطانيًّا، إلا أن الشيطان في نفس الوقت يمنيهم بالصلاح في المستقبل، وهذه سياسة إبليسية يحاول الشيطان أن يتغلب بها على نوازع الخير داخل الإنسان، ويُسكت بها صوت المعاتبة والملاومة والتردد الذي يسبق فعله للمعصية، فيقول له موسوسًا: **افعل ما بدا لك فالرب رحيم والعمر طويل والتوبة آتية آتية!!**

والحقيقة أن التوبة ليست هكذا..

"إنما تكون التوبة من الخطيئة التي يندفع إليها المرء غافلاً أو جاهلاً حتى إذا أفاق وتذكر ندم، وتاقت نفسه إلى التوبة. أما التوبة الجاهزة! التوبة التي تعد سلفًا قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة، فليست توبة، إنما هي تبرير لارتكاب الجريمة يزينه الشيطان!"



تلكم هي الخدعة الإبليسية التي كذب بها الشيطان على ملايين من البشر منذ بدء الخليقة، والعجب أنه ما زال هناك من يصدق إبليس في زعمه، وما زال هناك من لا يتعظ إلا بنفسه، وللأسف يمضي إبليس في مهمته من نجاح إلى آخر مستغلًا غفلة الناس وسذاجتهم.

ولا علاقة لحسن الظن بهذه الأماني الكاذبة، فحسن الظن إنما يكون مع الإحسان، فإن المحسن حسن الظن بربه أن يجازيه على إحسانه ولا يخلف وعده، ويقبل توبته، وأما المسيء المصر على الكبائر والظلم والمخالفات فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه، وهذا موجود في الواقع، فإن العبد الآبق الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به، ولا يجامع وحشة الإساءة إحسان الظن أبدًا، فإن المسيء مستوحش بقدر إساءته، وأحسن الناس ظنًّا بربه أطوعهم له. كما قال الحسن البصري: **إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل**، وكيف يكون محسنَ الظن بربه من هو شارد عنه، حالٌّ مرتحل في مساخطه وما يغضبه، متعرض للعنته، قد هان حقه وأمره عليه فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه وأصر عليه؟[1].

(١) الداء والدواء، (ص٢٦)، بتصرف.

ومـن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن **حسـن الظن بالله هو حسن العمل نفسه**. فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنـه بربه أن يجازيه على أعمالـه ويثيبه عليها ويتقبلهـا منه، فالذي حمله على العمل حسـن الظن، فكلما حسن ظنه حسن عمله، وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز؛ لأن حسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسـباب النجـاح، وأما مع انعقاد أسـباب الهلاك فلا يتأتى إحسان الظن[١].



(١) الداء والدواء، (ص٢٧)، بتصرف.

٩ الناس في الشر خيار

قال تعالى: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ (يوسف:١٠).

يبدو من اقتراح هذا الأخ -الأكبر في أغلب الظن- أن جرعات الحقد والشر في قلبه أقل من باقي إخوته، وهذه الحقيقة -**حقيقة تفاوت الناس في الشر**- لابد من التعامل معها، بل ولابد من استثمارها؛ لأنها تحقق بعض المصالح وتدفع بعض المفاسد، **خصوصًا عندما تنحصر الاختيارات بين سيء وأسوأ**، وهذا هو التطبيق العملي لفقه المصالح والمفاسد، فرغم بشاعة اقتراح ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ إلا أنه إذا قورن باقتراح ﴿ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ فسيبدو رحيمًا بعض الشيء؛ إذ أنه حافظ به على حياته التي لولاها لانتهت القصة قبل بدايتها.

ولا يتوقع منه في هذه المرحلة خير أكثر من ذلك، هذا القدر الضئيل من الخير تم ترجمته عمليًّا في قوله: ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ مع قدر من محاولة التخذيل عن الفكرة في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ

﴿فَاعِلِينَ﴾، حيـث اتفقـت كلمتهم من البداية على إبعـاده عن أبيه.

وهنـا نلاحظ أن معيار القلة والكثرة ليس دائمًا هو العامل الوحيد في القـرار النهائـي، فرغم أن رأيهـم جميعًا كان خـلاف رأي الأخ الأكبر إلا أنهم انصاعوا إلى اقتراحه ونفذوه.



١٠ الحرص الزائف:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ (يوسف:١١).

يكاد المريب أن يقول خذوني!! وفي عالم التحقيقات يقولون: **الجريمة تدل على صاحبها!!** وإلا فهذا الاستفهام الاستنكاري من هؤلاء الإخوة يدل على مدى شعورهم بما يعانون منه تجاه يوسف، ولكنهم يحاولون نفي التهمة عن أنفسهم بتوجيه اللوم للآخرين، وهو ما يُعرف في علم النفس بالإسقاط.

وهذا الاستفهام يدل أيضًا على أن لهم سوابقَ تجاه يوسف ما زالت عالقة في ذاكرة أبيهم، وإلا فلو كان الأمر طبيعيًّا لما احتاجوا لهذا القدر من العناء في إقناعه، فإنهم لَمَّا اجتمع رأيهم على أن يلقوه في غيابات الجب، جاءوا إلى أبيهم وخاطبوه بلفظ الأبوة استعطافًا له، وتحريكًا للحنو الذي جبلت عليه طبائع الآباء للأبناء، وتوسلوا بذلك إلى تمام ما يريدونه من الكيد الذي دبروه، واستفهموه استفهام المِنكر لأمر ينبغي أن يكون الواقع على



خلافه، فقالوا: يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف أي: أي شيء لك لا تجعلنا أمناء عليه؟ وكأنهم قد كانوا سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى[1].



(١) فتح القدير (٣/ ١٣).

١١ القَسَـم الكـاذب:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾

(يوسف:١١).

سبحان الله!! ما أشبه قسم إخوة يوسف لأبيهم بقسم إبليس لآدم وحواء في قوله: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ (الأعراف:٢١)، فإخوة يوسف عزموا على إلقائه في الجب وإبعاده عن أبيه وأقسموا كذبًا وزورًا على خلاف ما ينتوونه، وإبليس عزم على إيقاع آدم في المعصية وإخراجه من الجنة وأقسم كذبًا وخداعًا بخلاف ما يضمره له..

"ولا عجب في ذلك فإبليس يحاول أن يربينا على طريقته، ويسعى لكي يزرع فينا أخلاقه!!"

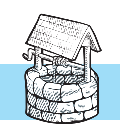
وقد تكرر ذلك منهم في قولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (يوسف:١٢)، وهذا التكرار والتأكيد يدفع إلى الشك والارتياب، فقد جرت العادة على أنه من كثر قسمه زادت نسبة الشك في صدقه.

١٢ الكذب المُقَنَّع:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (يوسف:١٢).

ما أقبح الكذب، وما أفحش الخيانة!! فقد اتفقت كلمتهم على الإضرار بيوسف والنكاية في أبيهم، وحاكوا مكرهم وكيدهم بليل، وفي نفس الوقت يمثلون على أبيهم أنهم حريصون على إدخال السرور والسعادة على قلب أخيهم الصغير.

وإذا أردت أن تعرف حجم القسوة في قلوبهم، وفظاعة الكذب الذي جرى على ألسنتهم فاسمع لابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ **وهو يقص علينا هذا المشهد المرعب فيقول:** «أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب وقد أخذوه من عند أبيه -فيما يظهرونه له- إكرامًا له، وبسطًا وشرحًا لصدره، وإدخالًا للسرور عليه، فيقال إن يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما بعثه معهم ضمه إليه وقبله ودعا له، وذكر السدي وغيره أنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه، والفعلِ مِنْ ضربٍ ونحوه، ثم جاءوا به إلى ذلك



الجب الذي اتفقوا على رميه فيه، فربطوه بحبل ودلوه فيه، فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة، فسقط في الماء فغمره، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه يقال لها الراغوفة، فقام فوقها»[١].



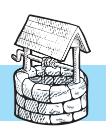
(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٢٠). وهي من الإسرائيليات التي لا يُجزم بصحتها، وإن كان نقلها هنا من باب الاستئناس وليس من باب الاستدلال.

١٣ شفقة الأب الحنون:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾ (يوسف:١٣).

هل كان غاية ما دار في خلد يعقوب أن إخوة يوسف سوف ينشغلون عنه ويهملون رعايته فيحدث له مكروه، أم أنه كان لا يستبعد أن يتعمدوا إيذائه؟ كِلا الاحتمالين وارد، ولكن المؤكد أنه كان في غاية القلق عليه من ناحية، وكان يشتَمُّ منهم رائحة المؤامرة والغدر من ناحية أخرى.

وكم عبرت هذه الآية بكلماتها القليلة الموجزة عن مدى تعلق قلب يعقوب بيوسف عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، إذا كان مجرد غيابه عنه جزءًا من اليوم يعد من مسببات الحزن والألم لديه، فكم تحمل قلبه المتيم كل هذه السنين التي غابها يوسف عنه، **ومع ذلك سيتضح من خلال مراحل القصة أن هذا الأمر المكروه ليعقوب، والضار ليوسف، كان في حقيقته خيرًا وفتحًا عليهما، بل ربما لم يكن لهذا الخير أن يتحقق لولا حدوث هذه المكاره**، فلنتأمل هذا الموضع جيدًا لندرك حكمة الله البالغة في قَدَره بخيره وشره.



١٤ الاغتـرار بالكثـرة:

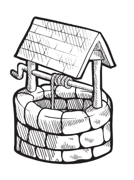
قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ (يوسف:١٤)، ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ (يوسف:٨).

تكرار الألفاظ على اللسان يكشف عن مدى توغل دلالتها في عقل وقلب من يرددها، وإخوة يوسف غلب عليهم الشعور بأنهم عصبة، أي قوة مجتمعة ومتحدة في الأهداف ومشتركة في المعاناة، والعصبة إن لم تكن في الخير فإنها تدمر أصحابها.

والعجيب في رد إخوة يوسف على أبيهم أنهم لم يأبهوا لقضية حزن أبيهم على فراق يوسف التي عبر لهم عنها بقوله: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ (يوسف:١٣)، والابن البار لا يمكن أن يُقدم على ما من شأنه أن يحزن والديه، ولكن جاء الرد المؤلم من هؤلاء الأبناء العاقّين بأن تجاهلوا هذه الجزئية تماما كأنهم لم يسمعوها، وانتقلوا مباشرة للرد على ما شعروا أنه انتقاص من قوتهم، أو تعريض بعصبتهم المتوهمة، عندما ذكر لهم يعقوب



تخوفه الثاني في قوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ (يوسف:١٣)، فانتفخت أوداجهم زهوًا وكبرًا وغرورًا، وردوا عليه بنسبة الخسران والهلاك لأنفسهم إذا وقع منهم ذلك.





التواصل بين القارئ والكتاب

مـا هـي الدروس التـي تعلمتها من هذا المشـهد؟ وما هي المشـاعر والانطباعـات التـي اسـتقرت في وجدانـك أثناء قراءتـك للمشـهد؟ وما هي النصـائح التي يمكن أن تنصـح بها غيرك تطبيقًا لما تعلمته، وإعمالًا لواجب النصيحة مع من تحب له الفوز والنجاة؟

☑ **الدروس التي تعلمتها هي:**

١- ....

٢- ....

٣- ....

☑ **المشاعر التي استقرت في وجدانك هي:**

١- ....

٢- ....

٣- ....

☑ **النصائح التي تحب أن تنصح بها غيرك هي:**

١- ....

٢- ....

٣- ....




المشهد الثاني
٢


يوسف في قعر البئر





★ المشهد كما وصفه القرآن.

★ تفاصيل المشهد.

★ رسائل من قلب الحدث.

١ الإجماع الأثيم والوحي الروحي.

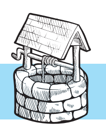
٢ دموع التماسيح.

٣ المواجهة المفضوحة.

٤ الدليل المهترئ.

٥ سيارة النجاة.





المشهد كما وصفه القرآن

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨) وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾

(يوسف:١٥-٢٠).



تفاصيل المشهد

أجمع الإخوة أمرهم واتفقت كلمتهم وأعدوا عدتهم لإلقائه في قعـر أحد آبار المياه البعيدة، وانتهت جريمتهم بنجاح، ولم يتبقَّ لهم سـوى كذبة يكذبونها على أبيهم يبرئون بها أنفسـهم عنده، ولم يُتعبوا أنفسهم كثيرًا وتذكروا أن أباهم قد خاف عليه من الذئب، فلماذا لا يكون تخوفه -الوارد عنده أصلًا- قد تحقق ووقع، وكنوع من الحماية المسبقة لكذبتهم قالوا لأبيهم: وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين.

يقـول ابن كثير: «وفي هذا تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه، يقولـون: ونحـن نعلم أنـك لا تصدقنا والحالة هـذه لو كنا عندك صادقـين، فكيف وأنـت تتهمنا في ذلك، لأنك خشـيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا»[1].

وإمعانًـا في حَبْـك الكـذب، قامـوا بتلطيـخ قميصه بدم شـاه ليبرهنـوا عـلى صحـة قولهـم المزعـوم، ولكنهـم في نفـس الوقت نسـوا أن يمزقـوا القميـص، **وكانت هذه هي الثغرة التي كشـفت**

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٢١).

خديعتهم، حيث إنه من المُحال عقلًا أن يأكله الذئب ويسيل منه الدم دون أن يتمزق قميصه، وهذا من أحد الأسباب التي جعلت يعقوب يُعرض عن كلامهم ويتشكك في أمرهم، **ويتسلح بالصبر الجميل إلى أن ينفرج الكرب ويزول الهم، وتنكشف الحقيقة**.

على الجانب الآخر كان يوسف الكريم على موعد مع معاناة جديدة، حيث تُرك وحده بلا أنيس ولا جليس، ولا طعام ولا شراب، في قاع بئر مظلم على طريق غير مأهول إلا من قوافل التجارة المسافرة، الله أعلم كم من الأيام مكث على هذه الحال، حتى أذن الله له بالفرج بسبب دلو أنزله صاحبه ليملأه ماء، فتعلق به يوسف وخرج معه إلى نور الحياة مرة أخرى، وتم اعتباره كالبضاعة التي تباع وتُشترى.

يقول ابن كثير: «وأسروه بضاعة أي وأسره الواردون من بقية السيارة وقالوا: اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره، قاله مجاهد والسدي وابن جرير: هذا قول، وقال العوفي عن ابن عباس قوله: وأسروه بضاعة يعني إخوة يوسف أسروا شأنه، وكتموا أن يكون أخاهم، وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع فذكره إخوته لوارد القوم،



فنادى أصحابه يا بشرى هذا غلام يباع فباعه إخوته»[1]، المهم أنه بِيع رقيقًا، باعه إخوته بدراهم قليلة معدودة، واشـتراه المسافرون على الطريق واستبشروا به خيرًا، حيث إنهم سيبيعونه بثمن أرجح مما اشتروه به.



(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٢٣).



رسائل من قلب الحدث

عند التأمل في هذا الجزء من القصة، سنجد أن إخوة يوسف وقعوا في ذنبين عظيمين:

أحدهما: فرع عن الآخر؛ **أما الذنب الأول فهو** التعاون على قتل صبي صغير لا ذنب له ولا جريرة، وهي جريمة كبرى وصفها القرآن بأنها بمثابة قتل البشرية جمعاء، قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة:٣٢).

وبعد أن أتموا هذه الجريمة، كان **الذنب الآخر** المترتب عليه هو الوقوع في الكذب الصريح، والذنوب والمعاصي تتفاوت في درجة القبح والسوء، إلا أنها تشترك في أن صاحبها تجرأ على مقام ربه، واهتزت عبادة الخوف والرهبة من الله في قلبه، إضافة إلى ذلك ..

"فالمعاصي سلاسل، تلتصق كل حلقة منها بالتي تليها، وكل مرحلة تُسلم إلى أختها"

وهذا سنراه متكررًا في القصة في عدة مواقف، وفيما يلي بعضٌ من رسائل هذا المشهد.

١ الإجماع الأثيم والوحي الرحيم:

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (يوسف:١٥).

قال محمد بن إسحاق بن يسار: لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل، وخطره عند الله، مع حق الوالد على ولده، ليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيبه على كبر سنه ورقة عظمه، مع مكانه من الله فيمن أحبه طفلًا صغيرًا، وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمرًا عظيمًا»[(١)].

ثم إن الله لطف به بأن أوحى إليه وهو في تلك الحال الحرجة، ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: سيكون منك معاتبة لهم، وإخبار عن أمرهم هذا، وهم لا يشعرون بذلك الأمر،

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣١٩).

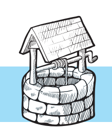
ففيه بشارة له، بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته على وجه العز والتمكين له في الأرض[١]، وكانت هذه البشارة أولى الأنوار في بحر الظلمات، وبداية الأمل في سحائب الشقاء، **فقد اجتمع على يوسف في هذه المحنة ظلمة البئر وظلمة الحقد وظلمة فراق الأب فضلًا عن أنواع الإهانات والسفاهات التي رآها منهم**، فيأتي هذا الوحي من السماء؛ لكي يجعل يوسف في كنف الله ورعايته، وهم لا يشعرون بإيحاء الله إليه.

وفي عدم شعورهم بما يدور حولهم، وبتدبير الله لأخيهم، إيحاء بضآلة حجم الإنسان ومدى ضعفه وجهله، وأنه مهما بلغ من الكيد والقوة والبطش إلا أنه يظل ضعيفًا عاجزًا، لا يتمكن من الفعل إلا إذا مكنه الله منه، ولا يقدر على الشيء إلا إذا أقدره الله عليه، لكنه يغتر بحلم الله وعفوه، ويُسخِّر نعمَ الله عليه فيما يغضبه عَزَّوَجَلَّ..

”فقد أراد إخوته له الهلاك والفناء، وكتب الله له الحياة والنجاة، وأرادوا به المذلة والمهانة، وأراد الله له العزة والتمكين“

---

(١) تفسير السعدي (ص٣٩٤).



فحريٌّ بمن يظلمون الناس ويعذبونهم ويعتدون على حقوقهم، أن يستوعبوا تلك الحقيقة، فهم أحقر وأضعف من أن يصنعوا شيئًا، أو يضروا أو ينفعوا..

"إنما يقع الضرر والنفع بأمر الله، إلا أن ما يوقعونه بالمؤمنين من ضرر يبوءون بإثمه ووزره، ويجعله الله سببًا للأجر والثواب لمن وقع عليه ظلمهم"

وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»[١].



(١) رواه الترمذي برقم (٢٥١٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٩٥٧).

٢ دموع التماسيح:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴾ (يوسف:١٦).

فعلوا فعلتهم الدنيئة في الصحراء، وذرفت دموعهم الكاذبة أمام أبيهم، مبالغة في إظهار الحزن، وتصنعًا في إبداء التألم، فشتان بين هذه الدموع التمثيلية ودموع يعقوب الصادقة التي أذهبت بصره، دموع يعقوب خرجت من أب مكلوم على ولده الحبيب، ودموعهم تكلفوا في تمثيلها إظهارًا للألم والحزن، مع أن قلوبهم ترقص طربًا لتخلصهم منه وإبعادهم له.

والإنسان الذي يحترف تمثيل الدموع يصير مع الوقت من أحط الكائنات شأنًا؛ لأنه يحترف الخداع ويتفنن في المكر، فالدموع أحد مظاهر التأثر التي قد تقهر الإنسان دون أن يكون له قدرة على التحكم فيها، وهي أحد أسباب جلب التعاطف واستشعار الشفقة، فإذا تصنع الإنسان فيها ليستدرَّ عواطف الآخرين دون أن تكون هذه الدموع تعبيرًا صادقًا عن ما يدور بداخل النفس من مشاعر، فإن هذا الأمر من أبشع الخداع والكذب، وقد امتلك إخوة يوسف هذه المهارة السيئة، فعيونهم باكية حزينة، بينما قلوبهم مسرورة سعيدة.

٣ المواجهة المفضوحة:

قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ (يوسف:١٧).

لم يبذل إخوة يوسف جهدًا في البحث عن حيلة تبدو صحتها ظاهريًّا..

" ولكنهم تلقفوا الكلمة من فم أبيهم ووضعوها في مشهد حزين ملونًا بالدم ومصحوبًا بالبكاء "

مع أنه لو كان لديهم شيء من الحصافة لبحثوا عن مبرر آخر غير المبرر الذي كان هو حجة يعقوب القوية في منعه عنهم، وكأنهم غفلوا عن حوارهم مع أبيهم عندما أفصح لهم عن مصدر خوفه على يوسف، فكان الرد الحاسم منهم على ذلك: ﴿ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ (يوسف:١٤).

وكنوع من الإرهاب الفكري لأبيهم، ذكّروه بأنه دائما ما يضعهم في موضع التهمة، ولا يصدق كلامهم، بغض النظر عن صدق ما يروونه أو كذبه.

وما أشد وقع كلمة أَكَلَهُ الذِّئْبُ على أسماع أي أب، يُنعَى إليه ولده بأنه صار مضغة لحم داخل أمعاء ذئب في براري الصحراء، فلو أنه مات ورأى جثته لهان عليه الأمر، لكنه هلك واختفى أثره، ولا سبيل للوصول إليه، ومع أن يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نبي من أنبياء الله، إلا أنه تعرض لهذا الحجم الهائل من البلاء..

"وفي هذا تسلية لكل مصاب بفقد حبيب أو عزيز، فإن من هم أشرف عند الله منزلة، وأعلى قدرًا، قد تعرضوا لهذه الدرجات العُلى من البلاء، ومع ذلك تحملوا وصبروا حتى فرج الله عنهم وأزال كربتهم"



٤ الدليل المهترئ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (يوسف:١٨).

من جملة ما تصوروه داعمًا لهم في موقفهم أمام أبيهم، أنهم نزعوا منه قميصه لكي يكون شاهدهم على صدقهم في كذبتهم، وليغطوا به على جريمتهم، **وتركوه في البئر عريانًا بلا ملابس تستره**، فإن نجا من الموت غرقًا فربما هلك من العراء والبرد، وهكذا عالم الجريمة كل واحدة منها تسلم إلى أختها، ربما ينتوي سارق أن يسرق شيئًا ما فإذا به يتورط في جريمة قتل.

وقد غفل إخوة يوسف عن الحقيقة التي تقول إن كل جريمة يترك فيها الجاني أثرًا على جريمته..

"وهذا أحد أسرار الحكمة الربانية بظهور مقتضى العدل الإلهي في نصرة المظلوم وكشف الظالم، فيعمي الله بصر الظالم، وتكون فضيحته من حيث لا يدري ولا يحتسب"

لأن من خذلان الله للمعتدي والمجرم أنه رغم احتياطه الشديد إلا أنه يغفل عن أمور أخرى قد تبدو يسيرة ولكن تكون هي الخيط الذي يوصل للحقيقة

فهؤلاء الإخوة لطخوا قميص يوسف بالدم ليدللوا به على صحة ادعائهم ولكنهم نسوا تمزيق القميص حتي يستقيم الادعاء بأنه تعرض للافتراس من الذئب، وهذا هو القميص الممزق وهذه آثار الدماء، أما أن يأكله الذئب دون أن يخدش قميصه فهذا هو العجب.

ولم يكن أمام يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أمام هذا الابتلاء الشديد إلا الصبر الجميل، ولو لم يكن صبر يعقوب صبرًا جميلًا لما تحمل غياب يوسف عنه كل هذه السنين وهو شبه متيقن أنه ما زال على قيد الحياة، لأن أفعال إخوة يوسف تبعث على الارتياب والشك، فضلًا عن أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لم ينسَ الرؤيا التي لم يتحقق تأويلها بعد، وبالتالي فما دامت لم تتحقق فلابد وأن يوسف مازال على قيد الحياة، ولكن عذاب يعقوب الحقيقي يتمثل في أنه لا يعرف أين هو؟ ولا كيف يعيش؟ ولا متى سيقابله؟ وهذا على النفس أكثر شدة وألمًا.

٥ سيارة النجاة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (يوسف:١٩).

لما مرت القافلة التي كانت تريد مصر، ووجدوا يوسف، عزموا أن يُسِرُّوا أمره، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم، حتى جاءهم إخوته فزعموا أنه عبد أبق منهم، فاشتروه منهم بذلك الثمن، واستوثقوا منهم فيه لئلا يهرب[١]، ولا يوجد امتهان أكثر من أن يتم التعامل مع الإنسان المكرم على أنه متاع أو بضاعة، تثمن وتباع وتشترى.

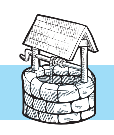
تخيل طفلًا بريئًا هو قرة عين أبيه، يقع في يد من يبيعه بدراهم معدودة كأنه من سقط المتاع، وهو في عين أبيه يفوق قيمة دراهم الدنيا كلها. ولكن لله في خلقه شئون، وهو العليم الخبير الحكيم.

وما أعجب لطائف القدر!!

قافلة تمر في الصحراء!!

---

(١) تفسير السعدي، (ص٣٩٥).



تظـل على سـفر بالأيام والليالي فينفذ ماؤهـا، فتبحث عن بئر لتتـزود بالمـاء فيكتـب الله عـلى يديها إنقاذ يوسـف، وقـد كان من الممكن أن لا يرتاد أحد هذه البئر لأيام طويلة، فالبئر في الصحراء، والطريـق غـير مأهول بالمارة، ولكن ما زال في عمر يوسـف بقية، ولم يحن موعد أجله بعد، لذلك كانت القافلة، ولذلك أتى الرجل بالدلو!!

وهـذا الأمر من ركائز الإيمان بالقدر التي لابد أن يتسـلح بها العبد لمواجهة مصائب الحياة، فلو قدر الله الموت على يوسف غرقًا في البئر لغرق مهما بُذل من أسـباب لإنقاذه، ولو قدر الله له النجاة -كما حدث-..

"فالأسباب التي يسخرها الله لإنفاذ قدره لا تخطر على بال بشر"



التواصل بين القارئ والكتاب

ما هي الدروس التي تعلمتها من هذا المشهد؟ وما هي المشاعر والانطباعات التي استقرت في وجدانك أثناء قراءتك للمشهد؟ وما هي النصائح التي يمكن أن تنصح بها غيرك تطبيقًا لما تعلمته، وإعمالًا لواجب النصيحة مع من تحب له الفوز والنجاة؟

☑ **الدروس التي تعلمتها هي:**

١- ....

٢- ....

٣- ....

☑ **المشاعر التي استقرت في وجدانك هي:**

١- ....

٢- ....

٣- ....

☑ **النصائح التي تحب أن تنصح بها غيرك هي:**

١- ....

٢- ....

٣- ....


المشهد الثالث
٣


يوسف في بيت العزيز





★ المشهد كما وصفه القرآن.

★ تفاصيل المشهد.

★ رسائل من قلب الحدث.

- ١ فراسة العزيز وبشارة التمكين.
- ٢ مراودة وقحة.
- ٣ خلف الأبواب المغلقة.
- ٤ الفرار من المعصية والخوف من العاقبة.
- ٥ الحقيقة الساطعة.
- ٦ وحدة الموقف وتباين النتيجة.
- ٧ السبق واحد والدوافع مختلفة.
- ٨ الشهوة المشتعلة.
- ٩ الصدمة القاتلة.
- ١٠ الحب الزائف.
- ١١ التحكيم وظهور البراءة.
- ١٢ رجولة ناقصة.
- ١٣ الحركة النسوية بالمدينة.
- ١٤ المكيدة النسوية.
- ١٥ وسقطت حُمرة الخجل.
- ١٦ التهديد الفاجر.
- ١٧ الصمود المبهر.
- ١٨ استجابة سريعة وراحة عجيبة.



المشهد كما وصفه القرآن

قَالَ تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۞

(يوسف:٢١-٣٤).



تفاصيل المشهد

بِيع يوسف إلى عزيز مصر، ونجاه الله من شر ذل العبودية والامتهان الذي يعاني منه عالم الرقيق في ذلك الوقت، وكان من مزيد لطف الله ورعايته به أن العزيز قد تفرس فيه الخير، واستبشر بقدومه، وتوسم فيه أن يكون مصدر خير له، وأوصى زوجته أن تعامله معاملة الابن وتنزله منزلة الولد.

ولأن الحياة دار ابتلاء وامتحان، ولأن الله أراد أن يرفع درجة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عنده، فيقدر عليه البلاء تلو الآخر ثم يوفقه للتغلب عليه والنجاة منه، فقد كان من ذلك البلاء أن وقعت امرأة العزيز في حبه بعد أن صار شابًا يافعًا، بل أحبته حبًّا قاتلًا استولى منها على مجامع قلبها، نظرًا لما مَنَّ الله به على يوسف من حسن وجمال ظاهر أخَّاذ فإنه عَلَيْهِ السَّلَامُ كان قد أُعطي شطر الحسن كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في السماء الثالثة، قال: **«فإذا هو قد أعطي شطر الحسن»**[١].

---

(١) رواه مسلم برقم (١٦٢).

ثم نظرًا لما تورثه الخلوة المحرمة بين الرجل والمرأة من إثارة للفتن والشهوات مع غياب الوازع الديني، وضعف الخوف من الله خصوصًا إذا طالت مدة هذه المخالطة، وأمن معها صاحبها من انكشاف سره وافتضاح أمره، كل هذه الأسباب دفعت امرأة العزيز إلى أن تراود يوسف عن نفسه فتطلب منه مواقعتها -والعياذ بالله- واتخذت لذلك كل التدابير والاحتياطات من غلق الأبواب وسد المنافذ، واجتهدت أيضًا في توفير وسائل الإغراء والإثارة من التهيئة الظاهرة والزينة الفاتنة، وهو ما عبر عنه القرآن بقوله ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ (يوسف:٢٣)، أي هَلُمَّ لك، أو «هِئْتُ لك» بكسر الهاء وبالهمز وضم التاء، بمعنى تهيأت لك.

وكان رد يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على هذا الطلب حازمًا جازمًا، إذ ليس من الدين أن يتجاسر الإنسان على محارم الله فينتهكها..

> **"ومعلوم شرعًا وقدَرًا أن المعتدي خائب في مسعاه خاسر في آخرته ودنياه، وليس من المروءة كذلك أن يخون يوسفُ مَن كان سببًا في حصول الخير له، وهو الذي أحسن وفادته وبالغ في ضيافته"**

ولكن المرأة كانت تملكت منها الشهوة **فأعمت قلبها، وأظلمت بصرها** ولم تعُد ترى سوى صورة مواقعتها ليوسف،

وأصبحت كالثور الهائج تجرى وراء يوسف طالبة له وهو يفر منها، فـإذا بهـا **تلحقه وتمـزق ثيابه** في لحظـة من لحظات سـكْر الهوى واستيلاء الشهوة.

هكـذا كان حال المرأة في مقابل يوسـف الذي لم يعتَرِهِ سـوى بعـض خطـرات حديث النفـس، التي سرعان مـا صرفها الله عنه حيـث رأى مـن آيات ربه ما يزجـره عما كان هم بـه، بغض النظر عن الوسيلة التي تم بها هذا الزجر، وليس في هذا الهم من يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إثـم ولا تجـاوز، فقد ورد عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال: قال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يقـول الله تعـالى: إذا هم عبدي بحسـنة فاكتبوها له حسـنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشـر أمثالها، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإنما تركها من جرائي، فإن عملها فاكتبوها بمثلها**»(١).

وفي ظل هذه الهرولة بين يوسف الذي يفر من الشهوة المحرمة والمرأة التي تعدو طلبًا لها **حدث ما لم يكن في حسـبان المرأة**، حيث وجـدت المـرأةُ زوجَها أمامها عنـد الباب يرى هذا المشـهد بعيني رأسه -**مع أنها كانت بالغة في الاحتياطات**- وبسرعة فائقة وبمكر

(١) رواه الترمذي برقم (٢٥١٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٩٥٧).

وغـدر ظاهر، ألقت على يوسـف تهمة مهاجمتهـا وإرادته بها فعل الفاحشـة، وحاولت إثـارة نخوة زوجها وغيرتـه؛ لكي ينتقم من يوسـف، أما يوسـف فقـد دافع عن نفسـه وصرح بأنهـا هي التي طلبت هذه الفاحشة وحاولت إرغامه عليها.

ويشـاء الله عَزَّوَجَلَّ أن يكتـب نجاة يوسـف من الشـبهة على يد شـاهد من أقارب تلك المرأة، فقد حكم الشـاهد أنه إذا كان قَطْعُ القميـص من الأمام فغالب الظن أنه هـو الذي هجم عليها وهي حاولت دفعه عن نفسـها فمزقت قميصه، أمـا إذا كان الخرق من الخلف، فالراجح أنه كان يفر منها وهي تحاول الإمساك به، وهذا هو ما قررته الآيات وجزمت به.

ظهـرت براءة يوسـف، وظهر كـذب المـرأة وخيانتها، ولكن العزيز لم يحرك سـاكنًا تجاه هذا الأمر، سوى أنه أمر يوسف بكتمان الأمـر وعـدم التحـدث بـه، وأمـر زوجتـه أن تعتذر عـن خطئها وتعترف بإثمها.

ولكن هذا المجتمع لا يمكن أن يبقى فيه سر دون أن ينكشف، خصوصًا تلـك الأخبار المثيرة والمتعلقة بالأعراض والشـهوات، لم يتكلـم يوسـف ولم تتحدث المرأة، ولكن الخبر شـاع عند نسـاء

المدينة، وبدأوا يتحاكون عنه، وكان منشأ لومهم على امرأة العزيز ليس على مبدأ المراودة أو الرغبة في الوقوع في الفاحشة، ولكن صلب الاعتراض على المرأة أنها تراود فتاها أى عبدها، وهي السيدة ذات الحسب والنسب والعلو والمكانة.

سمعت المرأة بكلام النسوة فقابلت هذا المكر منهن بمكر مضاد، فدعتهن لمجلس فيه مفارش، ومتكآت، وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين، وأخرجت يوسف عليهن في هذا المجلس، وحدث ما كانت تتوقعه المرأة، فقد أذهلهن حسنه وجماله بالدرجة التي أذهبت عقولهن فجرحن أنفسهن بالسكاكين التي كانت معدة لتقطيع الفاكهة، وهنا انتفشت المرأة وامتلأت زهوًا وغرورًا مما دفعها لمزيد من التبجح بإعلان اعترافها بأنها هي التي راودته عن نفسه في وقعة تمزيق القميص، بل ومزيد في هذه المجاهرة الفاضحة أنها أعلنت عن عزمها مواصلة إغرائه حتى ينصاع لها، وإلا فإن مصيره السجن ليلقى فيه شتى أنواع الذل والإهانة.

ولم يكن أمام يوسف مفر من أن يعلنها مدوية أمام المرأة وأمام النسوة بأن ما يهددونه به من السجن والإهانة أحب إليه مما يدعونه إليه من الإثم والفاحشة، وتضرع إلى ربه واستعان به ليصرف عنه

هـذا الكيـد وهذا السـوء، وأجابـه الله في دعائـه وصرف عنه هذا الكيـد، ولهـذا فقد ثبت في الصحيحين أن رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»[(١)].

يقول السِّعدي رَحِمَهُ اللهُ: هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف مـن محنة إخوته، وصـبره عليها أعظم أجرًا، لأنه صـبْرُ اختيارٍ مع وجـود الدواعي الكثيرة لوقـوع الفعل، فقدم محبة الله عليها، وأما محنتـه بإخوته فصبره صـبرُ اضطـرارٍ، بمنزلة الأمـراض والمكاره التي تصيب العبـد بغير اختياره، وليس له ملجأ إلا الصبر عليها، طائعًا أو كارهًا»[(٢)].



(١) رواه البخاري برقم (٦٦٠)، ومسلم برقم (١٠٣١).

(٢) تفسير السعدى، (ص٣٩٦).

رسائل من قلب الحدث

في هـذا المقطع من القصة، نلحظ ترتيب القرآن لوقعة مراودة المرأة ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فإن النسوة لما سمعن بهذه القصة، وهن الخبيرات بطبيعتهن الأنثوية، ثم بطبيعة الوسط الذي يعشن فيه، كان تعليقهن الواضح هو: ﴿ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ (يوسف:٣٠)، وبالتالي فقد ربطن ربطًا مباشرًا بين المراودة، وهي دعوتها الصريحة له لكي يواقعها في الحرام، وبين شدة الحب والتعلق الذي تمدد في قلبها حتى وصل إلى شغافه،

"وهذا التعلق الشديد لا يأتي إلا من خلال الإطلاق ومداومة النظر إلى ما لا يحل للإنسان أن ينظر إليه"

فيشتهي ويتمني، فإذا جاءته الفرصة صار أسيرًا لشيطانه ونفسه وشهوته، ولا يستطيع -والحالة هذه- أن ينجو من براثنها إلا إذا شاء الله أمرًا آخر، لذا كان لابد من الانتباه لخطورة هذه الخطوات الثلاث التي تسلم كل واحدة منها إلى أختها؛ النظر، والعشق، والزنا، وكما قال أحمد شوقي:

نظرة فابتسامة فسلام

فكلام فموعد فلقاء(١)

---

(١) ديوان أمير الشعراء أحمد شوقي، (ص٨٧).

أولًا: خطورة إطلاق النظر إلى الحرام:

لما كان النظر من أقرب الوسائل إلى الوصول للحرام اقتضت الشريعة تحريمه، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ (النور:٣٠-٣١)، فلما كان غض البصر أصلًا لحفظ الفرج بدأ بذكره، وقد جعل الله سبحانه العينَ مرآة القلب..

"فإذا غض العبد بصره غض القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته"

وفي الصحيح أن الفضل بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان رديف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم النحر من مزدلفة إلى منى «فَلَمَّا دَفَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّتْ بِهِ ظُعُنٌ يَجْرِينَ [أي: مجموعة من الجواري]، فَطَفِقَ الْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ، فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ عَلَى وَجْهِ الْفَضْلِ، فَحَوَّلَ الْفَضْلُ وَجْهَهُ إِلَى الشِّقِّ الْآخَرِ يَنْظُرُ، فَحَوَّلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ مِنَ الشِّقِّ الْآخَرِ عَلَى وَجْهِ الْفَضْلِ»(١)، وهذا منع وإنكار بالفعل، ولو كان النظر جائزًا لأقره عليه.

---

(١) رواه مسلم برقم (١٢١٨).

وفي الصحيحين عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ، فَزِنَا العَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ المَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ»[1]، **فبدأ بزنى العين؛ لأنه أصل زنى اليد والرجل والقلب والفرج**، ونبه بزنى اللسان بالكلام على زنى الفم بالقبل، وجعل الفرج مصدقا لذلك إن حقق الفعل أو مكذبا له إن لم يحققه، وهذا الحديث من أبين الأشياء على أن العين تعصي بالنظر، وأن ذلك زناها، وثبت عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «يَا عَلِيُّ لاَ تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّ لَكَ الأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ»[2].

وقال جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن نظر الفجأة فأمرني أن أصرف بصري، ونظرة الفجأة هي النظرة الأولى التي تقع بغير قصد من الناظر فما لم يتعمده القلب لا يعاقب عليه، فإذا نظر الثانية تعمُّدًا أثم فأمره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند نظرة الفجأة أن يصرف بصره ولا يستديم النظر؛ فإن استدامته النظرة الواحدة كتكرير النظر عدة مرات، وقد ثبت في

---

(١) رواه البخاري برقم (٦٦١٢)، ومسلم برقم (٢٦٥٧).

(٢) رواه أبو داود برقم (٢١٤٩)، والترمذي برقم (٢٧٧٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٩٥٣).

الصحيحين من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**اتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»، وورد كذلك عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديث ضعيف السند وإن كان معناه حسنًا، وهو: «**أن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غض بصره عن محاسن امرأة أورث الله قلبه حلاوة يجدها إلى يوم يلقاه**»[١].



(١) روضة المحبين، (ص٩٢، ٩٥)، بتصرف.

ثانيًا: العشق وأثره على القلب:

الخطوة التالية لمن أدمن النظر واعتاده، أن يُبتلى بالتعلق بصورة من الصور التي يراها ويتأمل فيها، خصوصًا مع وجود شيء من التعامل والتواجد في محيط واحد مثل الجامعة أو العمل أو الجيرة..

"فيتعلق قلبه بصورة فتاة، فيهيم بها وتشتعل جذوة العشق في قلبه، فيتتبعها ويطلبها"

وهذا ما حدث مع زوجة العزيز، فإن كثرة نظرها إلى يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والتأمل في محاسنه أدى بها إلى التعلق والميل القلبي.

وهنا يصل الإنسان إلى مرحلة الخطر، ويصير كمن يضع النار بجوار البنزين ويؤمل ألا يؤدي ذلك إلى اشتعال الحريق، أو يمنِّي نفسه بوجود احتياطات وقائية أو احترازية لمنع حدوث الحريق، ولكنه في الحقيقة يكون واهمًا، ولو تصور النجاة والسلامة مرة، فلن تسلم له باقي المرات.

وهذا هو حال من يطلق لنظره العنان في أن يتأمل جمال فتاة، أو يُعجب بمظهرها، أو بكلامها، أو بخفة ظلها، أو أي شيء مما يوجد في المرأة ويستلذه الرجل، ويتطلع إليه..

"لأن الله ركب في كل من الرجل والمرأة شهوة جنسية قوية، وأمر سبحانه بسد المنافذ أمام إثارتها أو تهييجها، وشدد على خطورة عدم السيطرة عليها، أو التهاون في إلجامها؛ لأنها إذا انطلقت فإنها تكون كالثور الهائج الذي ليس له خطام"

هذه هي توابع النظر الحرام عمومًا، أما إذا كان النظر متعلقا بامرأة معينة في العمل أو الجامعة أو غيرها، **فإن عاقبة هذا التعلق وخيمة**، إذا لم يسلك الرجل والمرأة مسار الزواج منذ البداية، وإلا فماذا يُنتظر من حب ينشأ في قلبين بين رجل وامرأة، ولا يكون هناك مظلة شرعية ينمو تحتها هذا الحب وهي الزواج.

فإذا كانت المرأة متزوجة، ووقعت في غرام رجل، أو وقع رجل في غرامها، فالنتيجة المنتظرة هي اللقاء المحرم، كما كان الحال مع زوجة العزيز..

"فرغم أنها متزوجة إلا أنها مع تكرار نظرها ليوسف وإعجابها به افتتنت به"

ولما كان الزواج متعذرًا لكونها متزوجة، فلم يبق أمامها سوى أن تُشبع شهوتها بالحرام.

وكذلك الأمر مع الشباب والفتيات في الجامعة ممن لا يتمكنون من الزواج إلا بعد التخرج، وربما بعده بسنوات..

"ومع تيقنهم من ذلك، إلا أن العلاقات الغرامية تنشأ بينهم في السنوات الأولى للجامعة بل في الأيام الأولى"

وتظل تلك العلاقة تشتد وتقوى مع الأيام، خصوصًا مع شدة التبرج، وكثرة اللقيا، ووجود التواصل الدائم من خلال وسائل الاتصالات المتنوعة، فيضعفا أمام قوة الغريزة، وتنهار مقاومتهما، وربما وقعا في الحرام.

وتعاملا مع بعضهما معاملة الأزواج دون أي رباط شرعي بينهما، وربما حملت الفتاة سفاحًا، وربما انكشف أمرها وتلوثت سمعتها، وربما يغدر بها رفيقها ويتركها بعد أن يقع المحذور، وربما يتقدم ذلك الشاب لأسرتها بعد كل هذه الفترة من العلاقة والخلطة، فلا يوافقون عليه لسبب أو لآخر..

"فتنهار الفتاة وتصيبها الصدمة، أو تفكر في الهرب معه بعيدًا عن رقابة أهلها، وبعضهن قد يُقدمن على الانتحار والتخلص من الحياة"



وكل هذه قصص من الواقع يشهد لها ويعاين أثرها كل من له اطلاع على واقع المجتمعات اليوم، وقليل جدًا ممن يعافيه الله وينجو من أضرار تلك التجربة المريرة، بعدما يقتحم أهوالها.



ثالثًا: جريمة الزنى:

أما جريمة الزنى فهي مناقضة لصلاح العالم في حفظ الأنساب، وحماية الفروج، وصيانة الحرمات، وتَوَقِّي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس، من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وابنته وأخته وأمه، فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها، ونكست رءوسهم بين الناس، وإن حملت من الزنى، فإن قَتلت ولدَها فقد جمعت بين الزنى والقتل، وإن حملته على الزوج أدخلت على أهله وأهلها أجنبيًّا ليس منهم، فورثهم وليس منهم، ورآهم وخلا بهم وانتسب إليهم وليس منهم، إلى غير ذلك من مفاسد زناها. وأما زنى الرجل فإنه يوجب اختلاط الأنساب أيضا، وإفساد المرأة المصونة وتعريضها للتلف والفساد.

وفي هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين، فكم في الزنى من استحلال لحرمات وفوات حقوق ووقوع مظالم؟ لذا كانت مفسدتها تلي مفسدة القتل في الكِبَر، ولهذا قرنها الله سبحانه بها في كتابه، ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنته، وقد أكد سبحانه حرمته بقوله:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾

﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠]. فقرن الزنى بالشرك وقتلِ النفس، وجعل جزاء ذلك الخلود في العذاب المضاعف، ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢].

فأخبر عن فحشه في نفسه، وهو القبيح الذي قد تناهى قُبحه حتى استقر فُحشه في العقول حتى عند كثير من الحيوان، كما روى البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال: «رَأَيْتُ فِي الجَاهِلِيَّةِ قِرْدَةً اجْتَمَعَ عَلَيْهَا قِرَدَةٌ، قَدْ زَنَتْ، فَرَجَمُوهَا، فَرَجَمْتُهَا مَعَهُمْ»[(١)]. ثم أخبر عن غايته بأنه ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا، وعذاب وخزي ونكال في الآخرة.

ومن خاصيته أنه يباعد صاحبه من الملك ويقربه من الشيطان، فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته، ولهذا شُرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها، ولو بلغ العبد أن امرأته أو حرمته قتلت كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت. وفي الصحيحين في خطبته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صلاة الكسوف أنه قال: «**يا أمة محمد، والله إنه لا أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته،**

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٨٤٩).

يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا»، ثم رفع يديه وقال: «**اللهم هل بلغت؟**».

وفي ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقب صلاة الكسوف سر بديع لمن تأمله..

"وهو أن ظهور الزنى من أمارات خراب العالم، وهو من أشراط الساعة"

كما في الصحيحين عن أنس بن مالك أنه قال: «لأحدثنكم حديثًا لا يحدثكموه أحد بعدي، سمعته من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنى ويقل الرجال وتكثر النساء، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد**»، وقد جرت سنة الله سبحانه في خلقه أنه عند ظهور الزنى يغضب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويشتد غضبه، فلا بد أن يؤثر غضبه في الأرض عقوبة.

قال عبد الله بن مسعود: ما ظهر الربا والزنى في قرية إلا أذن الله بإهلاكها[١].

وفيما يلي شيءٌ من الحِكَم والعِبَر والدلالات التي تناولها هذا المشهد:

---

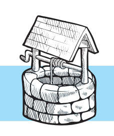
(١) انظر: الداء والدواء (ص١٥٠، ١٦٢)، بتصرف.

١ فراسة العزيز وبشارة التمكين:

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (يوسف:٢١).

أزمة ترقق أزمة وفتنة تخفف عن أختها، فقد بيع يوسف رقيقًا ولكنه استقر به المقام في قصر الملك، الملك الذي تفرس في وجهه فرأى فيه من النجابة وحسن الطالع ما شجعه على معاملته معاملة الابن والاهتمام به كما لو كان ولده من صلبه، ومع أن هذه الحياة الكريمة ينغصها البعد عن الأب وفراق الأخ الرفيق إلا أنها بلا شك خالية من كيد الإخوة ومكرهم، ذلك المكر الذي أعماهم ودفعهم إلى التخلص منه بلا رحمة منهم أو شفقة.

هذه الخطوة كانت بداية لتمكين يوسف في أرض مصر، وهذا الوعد القاطع بالتمكين صدر حينما كان يوسف لا يزال صبيًّا في قصر الملك، ولم تكن قد ظهرت أي بوادر مرئية لهذا التمكين،



ولكنها البُشرى الصادقة والموعود الحق من الله عَزَّوَجَلَّ، كما بَشَّر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفتح فارس والروم وهو محاصر في المدينة من الأحزاب، وكما بَشَّر سراقة بسواري كسرى وهو يطارده ليقبض عليه ويسلمه إلى قريش.

فهل يمكن لمظلوم أن يحزن أو يدب اليأس في قلبه، وهو يقرأ في قرآن ربه تلك الحقيقة الناصعة، وهذا الضمان الإلهي: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، هذا الحصن الحصين الذي يمثل ملاذًا للخائفين والمستضعفين والمقهورين، الذين لا ناصر لهم ولا قوة في أيديهم.

وهل يمكن أن تبقى غلبة لظالم، أو قوة لفاجر، والله هو القوي المتين الذي لا يُغالب في أمره ونهيه، إنَّ في ذكر هذه الآية عقب قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، رسالة لا تخطئها العين، فرغم المكر والظلم والإبعاد والمؤامرة التي تعرض لها يوسف، إلا أن الله مكن له في الأرض وجعله فوق من ظلمه، وأعطاه من فضله الواسع مالم يكن في حسبان أحد، وما ذاك إلا دليلا وتطبيقًا لعلو الله عَزَّوَجَلَّ وغلبة أمره، ومع جلاء هذا الأمر ووضوحه إلا أن كثيرًا من الناس في غفلة وجهل عن ذلك،



ولكن المؤمن الصادق يستلهم الرؤية والبصيرة والراحة النفسية من حقائق القرآن ومعانيه الكبرى، التي تكون له عونًا ومددًا في الشدائد والابتلاءات التي يتعرض لها.



٢ مـراودة وقحـة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ (يوسف:٢٣).

الحيـاة المرفهـة الناعمـة في القصور التـي يحياها أبنـاء الطبقات المترفـة، ينتـج عنهـا في الغالـب أنـواع مـن الانحـلال والتسـيب، لذلك..

"فقـد يكون الغنى فيه نوع مـن الابتلاء يفوق ما يمكن أن يتواجد في حال الفقر والفاقة"

ورغـم أن المال نعمة من الله يمكن أن تفتح على الإنسـان أبوابًا من الطاعات لا يتمكن منها الإنسان في الغالب إلا بنوع من السعة، إلا أن الغالـب على أصحاب الغنى والمال هو انتشـار الفسـاد، وقلة الديانة، والجرأة على المحرمات، إلا من رحم الله.

وفي هـذه القصـة نجـد أن المرأة تجرأت عـلى معصية قبيحة في ذاتهـا ولكنهـا تزداد قبحًـا في أحـوال معينة؛ كما نـص الشرع على قبـح الزنا عمومًا، ثم ذكر الأحوال التـي يتعاظم فيها هذا القبح، ومنها الذي يزني وهو متزوج، وهو الزاني المحصن، أو الذي يزني

بزوجة جاره، وهكذا، وهنا نجد أن المراودة جاءت من المرأة رغم أن الأصل أن تكون المرأة مطلوبة لا طالبة، وقد عبر القرآن بلفظ ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ ليكشف عن مدي بشاعة فعلها.

- **فرغم** أنها امرأة إلا أنها هي الطالبة!!
- **ورغم** أنها سيدته إلا أنها هي الراغبة!!
- **ورغم** أنها امرأة متزوجة إلا أنها وقعت في الفتنة بشاب أعزب!!

- **ورغم** أنه في بيتها وقد وصاها زوجها أن تعامله معاملة الولد، وهي بالفعل قد رأته فتىً صغيرًا وربته على عينها، ومع ذلك فقد نظرت إليه بشهوة، وراقبته بشغف إلى أن بلغت منها الشهوة مبلغًا عظيمًا جعلتها تتناسى كبريائها ومكانتها، وتتجرأ على مراودته عن نفسه!!

وبالتالي..

"فهذا الموقف ينهي الأسطورة التي يتوهمها البعض من أن فرق السن أو تفاوت المستوى أو سلامة النية بين الرجل والمرأة (من غير ذوات المحارم) يمكن أن يقفوا حائلًا أمام الشهوة طالما توفرت أسباب اشتعالها"

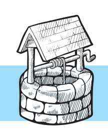
"فالخلوة المحرمة تؤدي إلى المصائب العظيمة"

مهما حرص الإنسان على تصحيح نيته، وإبعاد الوساوس عن قلبه، وقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلا لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ»[1]، والشيطان إذا كان معهما فلن يأمرهما إلا بالسوء والفاحشة والفجور.

وقد ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن يوسف الصديق من العفاف أعظم ما يكون فإن الداعي الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حق غيره، **فإنه كان شابًّا** والشباب مركب الشهوة، **وكان عزبًا** ليس عنده ما يعوضه، **وكان غريبًا** عن أهله ووطنه، والمقيم بين أهله وأصحابه يستحي منهم أن يعلموا به فيسقط من عيونهم فإذا تغرب زال هذا المانع، **وكان في صورة المملوك والعبد** لا يأنف مما يأنف منه الحر.

وكانت المرأة ذات منصب وجمال والداعي مع ذلك أقوى من داعي مَن ليس كذلك، **وكانت هي المطالبة** فيزول بذلك كلفة تعرض الرجل وطلبه وخوفه من عدم الإجابة، وزادت مع الطلب

(١) رواه الترمذي برقم (٢١٦٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٥٤٦).



الرغبـة التامة والمراودة التي يزول معهـا ظن الامتحان والاختبار لتعلـم عفافـه من فجوره، **وكانـت في محل سـلطانها وبيتها** بحيث تعـرف وقت الإمـكان ومكانه الذي لا تنالـه العيون، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب لتأمن هجوم الداخل على بغتة، وأتته بالرغبة والرهبـة، **ومع هذا كلـه فعف لله ولم يطعها، وقـدم حق الله وحق سـيدها على ذلـك كله، وهذا أمر لو ابتلي به سـواه لم يعلم كيف كانت تكون حاله**[1].



---

(١) روضة المحبين (ص٣١٨).

٣ خلف الأبواب المغلقة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ (يوسف:٢٣).

ممارسة المعصية تجعل الرب في نظر العبد أهون الناظرين إليه، فغاية هم المرأة أن تغلق عليها الأبواب حتى لا ينكشف سرها أمام أحد من المخلوقين، ولم تستحِ من نظرة الله لها في هذه الحال، وهذا هو أثر المعصية على قلب العبد، لذلك..

"قال العلماء: المعاصي بريد الكفر؛ لأن تكرارها مع عدم التوبة منها يجعل الإنسان جريئًا على حرمات الله متساهلاً في انتهاكها"

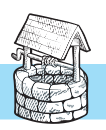
تجرأت المرأة وتبجحت وعرضت على يوسف الفاحشة عرضًا صريحًا مباشرًا وقالت له: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾، تُرى كم من المحاولات الخفية والمستترة التي سبقت هذا الطلب الفج الصريح؟! وكم من الفتن كان يتعرض لها يوسف ليل نهار وهو ما زال شابًّا صغيرًا، خصوصًا وهو يعيش مع هذه المرأة في مكان واحد؟!

هل ترك يوسف عذرا لشاب أو مراهق يشتكي كثرة الفتن، وقد ضرب عَلَيْهِ السَّلَامُ مثلًا نادرًا في الصمود والعفة ومواجهة الشهوة مع قوة الدواعي وعنفوانها؟ ولنتأمل هنا أدب القرآن وحرصه على عدم إثارة الغرائز، فعبر عن عملية المراودة بكل تفاصيلها بكلمة واحدة ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، وإلا فهذا المشهد بعينه تقدمه التوراة بأيدي الأحبار جيّاشًا بنبضات الإثارة، ممتلئًا بمحركات الشهوة.

وهذا المشهد وأمثاله يقدمه مخرجو السينما، وصانعو الأفلام، مزودًا بكل وسائل التهييج والإثارة بما يحرض تحريضًا صريحًا على الفجور، ويشجع تشجيعًا صارخًا على الفاحشة والرذيلة، ثم يزعمون أنهم يعالجون مشكلات المجتمع..

"فهلا اقتدوا بالقرآن ـ إذا صدقوا في دعواهم ـ في اختصاره لمشهد المراودة بالطريقة التي لا تحرك المشاعر، أو تبعث على الفتنة"

رغم أن المشهد الذي عرضه القرآن مشهدًا حقيقيًّا، وليس مستوحىً من خيال مريض لمخرج، أو شهوة فاجرة لممثل، ومع ذلك كان الحرص التام على العفة والحياء في عرض مشهد من أكثر المشاهد إثارة.

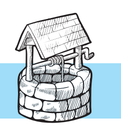


٤ الفرار من المعصية والخوف من العاقبة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ (يوسف:٢٣).

كان رد يوسف السريع والتلقائي هو ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾، هذا الرد يكشف عن قوة الإيمان في القلب، ومعرفته ببشاعة الذنب وقبحه، مع اندهاش واستغراب من جرأة الطلب، وهذا الأمر أيضًا يدل على أن يوسف لم يفكر ولو للحظة فيما فكرت فيه المرأة مع أن الدواعي عنده أقوى منها، فهو الشاب العزب الغريب المطلوب الوسيم.

وكأن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يقدم بهذا الموقف العملي بيانا بالعلاج والخلاص لكل من ابتلي بفتنة النساء على اختلاف درجات هذه الفتنة، فالأسباب التي منعت يوسف من التجاوب مع المرأة، والتي عصمته من الاستجابة لرغباتها، قد لخصها في جملة واحدة ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾، فهو يشهد نعمة الله عليه وأفضاله التي أنجته من المهالك والمصائب المتتالية، وهذا الشعور يجعل القلب منكسرًا ذليلًا خاضعًا لله وقَّافًا عند حدوده حافظًا لحرماته.

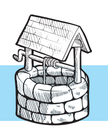


والأمر الثاني أنه لا يستطيع أن ينتهك حرمة صاحب المنزل، ويخونه في غيبته، وهو الذي أحسن وفادته، وعامله كما يعامل ابنه، فإن تصور أن يفعل ذلك الفعل المشين في المطلق، فليس من المروءة أن يفعله مع من استأمنه على بيته وأهله.

"فإذا تعرضْتَ أخي الشاب لفتنة من هذه الفتن التي أصبحت تملأ الحياة، في أماكن العمل والاختلاط والجامعات بل صارت حاضرة في الشوارع والطرقات، فاستحضر طريقة النجاة التي استخدمها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهذه المواقف لا ينجو منها إلا من ينجيه الله بفضله ولطفه ورحمته"

فاستوثق بربك واستعن به والجأ إليه، واحتمِ بجنابه، فإن ذلك يعصمك من شر هذه الفتن، ويعينك على نفسك وشيطانك بإذنه عَزَّوَجَلَّ.





٥ الحقيقة الساطعة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

(يوسف:٢٣).

أفصح يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عن واحدة من الحقائق التي لا تتخلف ولا تتبدل، حتى وإن تأخر ظهورها، وبدا للناظر عدم تحققها ظاهريًّا أو مرحليًّا، ولكنه وعد إلهي قرره الله كأحد قوانين الكون، وكأحد قواعد الحياة التي لا تعرف المحاباة ولا المجاملة، **فالظالمون لا يظفرون بمطالبهم، ولا يُوفقون لمآربهم**، ومن جملة هؤلاء الظالمين أولئك الذين يقعون في تلك المعصية التي تطلبها امرأة العزيز من يوسف.

فهؤلاء يفتقدون الفلاح في الدنيا والآخرة إذا ماتوا من غير توبة، فعدم الفلاح في الدنيا يظهر على وجوههم وفي أنفاسهم، قبل أن يظهر في أعمالهم وأفعالهم، **فالله** عَزَّوَجَلَّ **لا يكتب الفلاح لمن يعتدي على محارمه وينتهكها**..

"لأن هذه النوعية من المعاصي تجلب على صاحبها النقمة والخزي والخذلان، فيبتعد عنه التوفيق ويحالفه الفشل والضيق والكرب"



وما يمكن أن يحصله من لذة وسعادة من المعصية، يجني أضعافه حزنًا وغمًّا ونكدًا، أما عدم فلاحهم في الآخرة فيظهر في شدة العذاب الذي يختصون به من بين سائر أهل النار، فيُحشرون في جهنم في تنور الزناة، ويشربون صديد وقيح أهل النار، وهكذا يستمر عذابهم، وتتواصل معاناتهم.



٦ وحدة الموقف وتباين النتيجة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (يوسف:٢٤).

فكلًّا من المرأة ويوسف كانا في موقف الفتنة والخلوة، ولكن المرأة تحركت بأفعال صريحة واضحة توقعها في الفاحشة، لذلك أكد القرآن همها بـ «لقد»، لأنها لم تدخر وسعًا في تحصيل كل الأسباب التي توقعها في الفاحشة،ولم تمتنع عن الفعل من نفسها ولكنه حيل بينها وبينه، ولو وافقها يوسف على طلبها، لسُرت بذلك وابتهجت، أما تحرك يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقد كان فرارًا من المعصية، ولم يكن همه سوى حديث نفس صرفه الله عنه لأجل إخلاصه وصدقه.

فمعنى (الهم) حينئذ ما قاله الإمام الرازي: من أنه خطور الشيء بالبال، أو ميل الطبع. كالصائم في الصيف. يرى الماء البارد، فتحمله نفسه على الميل إليه، وطلب شربه، ولكن يمنعه دينه عنه. وكالمرأة الفائقة حسنًا وجمالًا، تتهيأ للشاب النامي القوي، فتقع

بين الشـهوة والعفة، وبين النفس والعقل، مجاذبة ومنازعة (فالهم هنـا عبارة عن جواذب الطبيعة، ورؤية البرهان جواذب الحكمة، وهذا لا يدل على حصول الذنب، بل كلما كانت هذه الحال أشـد، كانت القوة على لوازم العبودية أكمل[1]).

والـذي عصـم يوسـف عَلَيْهِ السَّلَامُ هـو إيمانـه القـوي، وأعمالـه السابقة..

"فعبـادة في وقت الرخاء تكون سببًا لنجاة العبد في وقت البلاء"

وحسن العلاقة بين العبد وبين ربه تتجاوز به أزمات ومصائب لا قِبل للعبد بمواجهتها، وإلا فموقف مثل الذي تعرض له يوسف مـا كان يقدر عـلى مواجهته بدون أن يكون متسـلحا بإيمان عميق واتصال وثيق مع الله عَزَّوَجَلَّ، لأن الأسباب الظاهرة وحدها توحي بـأن الوقـوع في الورطة واقـع لا محالة، ولكن ما خفـي من أعمال القلـب يكـون هو المعـول الرئيس في نجـاة العبد مـن الفتن، وقد صرح القرآن بذلك في لفظة ﴿عِبَادِنَا﴾ و﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

---

(١) محاسن التأويل (٦/ ١٦٧).

٧ السبق واحد والدوافع مختلفة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ ﴾

(يوسف:٢٥).

فكلاهما يجري ويحاول السبق ولكن شتان بين المتسابقين..

"فيوسف يجري فرارًا من المعصية ومحاولة لإبعاد نفسه عن الوقوع في الفتنة، وامرأة العزيز تجري رغبة في تحقيق شهوتها وحصول مقصودها من شهوتها"

لذا فالناس مقامات والنفوس أنواع، فهناك نفوس طاهرة زكية،وهناك نفوس خبيثة ملوثة، تسعى لإهلاك صاحبها وتدميره.

ولعل من توفيق الله عَزَّوَجَلَّ ليوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن يحاول الفرار والهرب من هذا المكان، الذي حلت فيه الشياطين، لأن البقاء في هذا المكان ولو للحظة واحدة فيه إعانة للشيطان على النفس، التي ربما لا تقدر على مقاومة الإغراء فتسقط فيه وتنهار.

وهذا السلوك من يوسف عَلَيهِ ٱلسَّلَامُ -رغم أنه نبي- يوضح لنا حقيقة ضعف النفس البشرية، وأنه لولا الحصون التي يحصن بها الإنسان نفسه لهاجمها الأعداء واخترقوها من كل جانب..

"وبالتالي فالفرار واجب على كل من يجد نفسه في مكان فتنة، أو موضع فتنة، أو أصدقاء سوء يزينون له الفتنة"

فإنه إن لم يفر في التو والحال، فإن نسبة وقوعه في الفتنة تتعاظم وتكبر إلى أن تلجمه وتأسره، فلا يستطيع منها فكاكًا.



٨ الشهـوة المشتعلـة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾

(يوسف:٢٥).

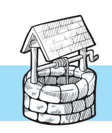
تملكت الشهوة من جسد المرأة، فسلبت منها جوارحها وأعضاءها ووظفتها جميعًا لخدمتها، ولأجل تحقيق متعتها، وإلا **فأي جذبة قوية تلك** التي تمزق القميص من الخلف، **وأي عقل هذا** الذي يجعل المرأة تجري كالمجنونة من أجل إجبار رجل على مواقعتها، وهل يتصور في هذا الأمر أن يتم إكراهًا وغصبًا بهذه الطريقة..

"ذلك أن الشهوة إذا اشتعلت فهي كثور جامح يصعب السيطرة عليه أو تحجيمه"

لذا كانت حكمة الشرع في سد المنافذ والطرق المؤدية للشهوة قبل وقوعها..

"لأن الإنسان إذا عجز عن السيطرة على الشهوة في بداياتها فهو عند وقت اشتعالها أعجز"

ومثل هذه الحالة من الهياج الشهواني رأيناها في مجتمعاتنا في أماكن اللهو المحرم والاختلاط الفاحش، مع انهيار الأخلاق



وانحطاط الحياء وفشو التبرج الفاضح الذي يدعو إلى الرذيلة ويشجع على الفجور.

"فالصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة"

فإنها **إما أن** توجب ألما وعقوبة، **وإما أن** تقطع لذة أكمل منها، **وإما أن** تضيع وقتا إضاعته حسرة وندامة، **وإما أن** تثلم عرضًا توفيره أنفع للعبد من ثلمه، **وإما أن** تُذهب مالا بقاؤه خير له من ذهابه، **وإما أن** تضع قدرًا وجاهًا قيامه خير من وضعه، **وإما أن** تسلب نعمة بقاؤها ألذ وأطيب من قضاء الشهوة، **وإما أن** تطرق لوضيع إليك طريقًا لم يكن يجدها قبل ذلك، **وإما أن** تجلب هما وغمًّا وحزنًا وخوفًا لا يقارب لذة الشهوة، **وإما أن** تنسي علمًا ذكره ألذ من نيل الشهوة، **وإما أن** تشمت عدوًّا وتحزن وليًّا، **وإما أن** تقطع الطريق على نعمة مقبلة، **وإما أن** تحدث عيبًا يبقى صفة لا تزول، فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق[١].



(١) الفوائد (ص١٣٩).

٩ الصدمة القاتلة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾

(يوسف:٢٥)

سبحان الله!! كيف حدث هذا؟! من المؤكد أن امرأة العزيز ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ إلا أنها بعد لحظات ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾.

- تُرى أي باب سقط منها سهوًا فلم تُحكم إغلاقه؟
- وأي ثغرة نفذ منها زوجها فوجدها على هذه الحالة؟!
- وأي غفلة وسكر هذا الذي يجعل المرأة لا تنتبه لمجيء زوجها وقربه من الباب وهو الوزير الذي ينتقل بخدمه وحشمه وجلبته؟!

ويبدو أن زوجها هم بالدخول من أحد الأبواب من خارجها، والطبيعي أن يكون معه مفاتيحها ليسهل دخوله منها، وفي نفس الوقت فإن التسابق بين يوسف وامرأة العزيز كان قد أوصلهما إلى نفس الباب، فكانت المواجهة المكشوفة، والصدمة القاتلة.

"وهكذا كل صاحب معصية معرض لانكشاف سره وافتضاح أمره مهما بالغ في الاحتياطات وغلّق في الأبواب"

وقد..

"جرت العادة أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يكشف ستره عن عبده إلا بعدما يتجرأ العبد على حرمات الله ويستمرأ مواقعتها، والتلبس بها"

فالله عَزَّوَجَلَّ حليم ستير يحب الستر والمغفرة، ولكن انكشاف السر وافتضاح الأمر يكون عقوبة دنيوية لمن يكرر ممارسة المعصية حتى يعتادها.

والمتأمل في هذا الموقف يجد أن فضيحة الدنيا نوع من الذل الذي يصيب صاحبه بسبب المعصية التي ربما يستلذها في بدايتها، ولكن يعقب هذه اللذة المؤقتة حسرات وخسارات لو قدرها العاقل حق قدرها لانزجر عنها خوفا من نتائجها وآثارها، وإلا..

"فماذا تساوى لذة مؤقتة تقضيها امرأة العزيز مع فتاها أمام افتضاحها أمام زوجها وضبطها متلبسة بفعل فاضح أو في مشهد مريب؟! ماذا تساوي اللذة المؤقتة عندما تكتشف النفس مدى حقارتها وسوء طويتها؟!"

١٠ الحب الزائف:

قال تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (يوسف:٢٥).

أفاقت المرأة من سكرتها على مشهد دخول زوجها، الذي وجدها في أحلى زينة، وأبهى حلة، ووجد قميص يوسف ممزقًا، والطبيعي أن يظهر عليهما أيضًا آثار الاستباق والمقاومة التي لم تخفت علاماتها بعد، فهل تعترف المرأة على نفسها ويفتضح أمرها؟! أم تتأخر في البيان فيسارع زوجها إلى اتهامها؟!

وبسرعة البرق قررت المرأة أن تضحي بالحب الذي زعمته ليوسف، فغيرت ملامح المشهد لتوحي بأنه محاولة من يوسف للاعتداء عليها، وأن مجيء زوجها في هذه اللحظة كأنه أنقذها من محاولة اغتصاب محققة، وهنا يكون الطبيعي أن تطالب المرأة بتوقيع أشد الجزاء والعقوبة على المعتدي، خصوصًا إذا كان المُعتدَى عليه زوجة العزيز.

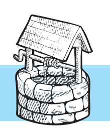
وقد قالت المرأة هذه المقالة رغبة منها في الستر على نفسها، فنسبت ما كان منها إلى يوسف، فقالت: أي جزاء يستحقه من

فعل مثل هذا الفعل، ثم أجابت عن استفهامها بقولها: إلا أن يسجن أي ما جزاؤه إلا أن يسجن.

"فالمرأة التي كانت تُظهر الحب ليوسف، إذ بها تحت ضغط الفرار من الفضيحة سرعان ما تتخلى عن حبها له، فتتنصل منه وتضعه في موضع التهمة بل تحدد له العقوبة!!"

وهكذا كل اجتماع على معصية لا يدوم طويلًا؛ لأنه قائم على أساس هش وبنيان متهالك.

وقد حكى القرآن مثالين متشابهين في ذلك.. الأول تلاوم الملأ مع إبليس، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ (إبراهيم:٢٢)، والمثال الثاني مثال الصداقة المهلكة، قال تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف:٦٧).

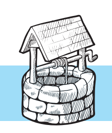


١١ التحكيم وظهور البراءة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴾ (يوسف:٢٦-٢٨).

اضطر يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أمام تبجح المرأة أن يجهر بالحقيقة، وأن يُفصح عن طبيعة الموقف، **فليس هو المعتدي** ولا الساعي في الاغتصاب، **ولكنها هي المتحرشة** والراغبة في الغواية، وكأن التهمة أصبحت تبادلية، فهي تتهمه بمحاولة الاعتداء عليها، وهو يتهمها بأنها هي التي تسعى لإجباره على مواقعتها، فكان لابد من مُحكِّم يحقق في القضية، ويستوثق من الحقيقة.

وهنا يظهر دليل البراءة في القميص الممزق؛ لأن تمزيقه كان من الخلف، والعقل يحكم بأنه لابد أن يكون يوسف في موضع الفرار لا في موضع الهجوم، وهنا يظهر أثر لطف الله في تقديره، فلولا تمزيق القميص لصار من الصعب أن يتم إثبات براءة يوسف،



والمـرأة في مثل هـذه الأحوال تكون هي المُصدَقَة، ولكن سـبحان من يقدر المقادير ويسبب الأسباب.

ومع ذلك **فقد فات العزيز، وفات الشـاهد أن يسـألا المرأة** عن سـبب تواجدهـا بكامل زينتها مع يوسـف، إذ أن هذا في حد ذاته سـببًا كافيًا لإثارة أسـباب الشـبهة حولها، وتوجيه أصابع الاتهام نحوهـا، ولكنـك تلحـظ ليونـة مـن الرجـل في التعامل مـع هذا الفحش الظاهر الذي قامت عليه البينات وحكم به الحكماء، حتى أنه لم يشـأ أن يوجـه لها لوما مباشرا فوجه اللوم إلى جميع جنسـها، وكأنـه يحـاول أن يـبرر لها فعلتهـا التي جـاءت نتيجة مكـر وكيد يستوي فيه جميع النساء -والعياذ بالله!!

وهذا التسـبب هو الذي شـجع المرأة على التـمادي في فجورها وغيهـا، فلو وجدت هذه المـرأة من زوجها غـيرة حقيقية وغضبا لأجـل عرضـه وحرماتـه لانتهـت عـن غيها وعـادت لرشـدها واكتفت بما تم من فضيحة وخذلان، لذلك قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يدخـل الجنـة ديـوث»، **لأن دياثتـه تكـون سـببًا في الفسـاد والإفساد، وهي التي تسهل فعل الفاحشة وانتشارها.**

ولكن هذا هو المتوقع عندما تغيب القوامة عن الرجل ويتخلى عـن دوره في رعايـة أسرتـه وصيانة عرضـه، فإن الكـوارث تحل والفواحش تنتشر و المنكرات تزداد..

"وإلا فالشـوارع التـي تمتلأ بالنسـاء المتبرجة، والملابس الخليعة، لابد أن لهن رجالًا سمحوا بذلك، سواء كان أبًا أو زوجًا أو أخًا"

وهنا يشـارك هـؤلاء الرجال -علمـوا أم لم يعلمـوا- في هذا الضياع والانحلال الذي يغرق فيه المجتمع.

وليعلم الجميع أن الغرب يسعى بكل قوته إلى تدمير الأسرة والمجتمـع مـن خلال المـرأة عن طريـق حثها على التمـرد ودفعها إلى الثـورة والعصيان، بزعم حرصه عـلى أن تأخذ حقوقها كاملة وأن تطالب بحريتها وتحررها وخروجها من سـجن الرجل الذي يسـعى للسـيطرة عليها والتحكم فيها، وأن هذه الطاعة تعد نوعًا مـن الذل والعبودية الـذي لا يليق بالمرأة العصرية، فماذا يمكن أن يصير الحال بالمجتمع إذا فشـت فيه هـذه الأفكار، وتربت البنات على هذه القيم، وتأقلم الشباب على هذا الانحراف وقبلوه؟![1].

(١) يتضح هذا جليًّا لمن يتابع أنشطة وفاعليات ما يُسمى بـ«منظمات المجتمع المدني»، التي تَعقد ورش عمل للشبـات والفتيات داخل بلادنا، بهدف تجرئتهم على طرح هذه المفاهيم ونشرها في المجتمع، وهذه هي الصورة الأكثـر رواجًـا للغزو الفكري الذي يتسـلل إلى مجتمعاتنـا متخفيًا تحت لافتة «الثقافة والفن».

١٢ رجولـة ناقصـة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ (يوسف:٢٩).

الملاحـظ هنا أن التوجيهات جاءت مـن الرجل لزوجته دون وجود اسـتجابة ظاهرية منها، بل أحداث القصة بعد ذلك توحي بأنهـا **لم تتعالج** بعد من أمراض قلبها، **ولم تبـذل جهدًا** في مقاومة شـهوتها ونزواتها، وفي المقابل اكتفى العزيـز بتوجيهات ونصائح عامـة، **ولم يسـد الذرائـع** التـي أدت إلى وصول الوضـع إلى هذه الحالـة المزرية، **فلـم يعالج الخلـل القلبي** الذي أصابهـا، **ولم يمنعها مـن** الاختلاط بيوسـف، فضلًا عن معالجة الأسـباب المفضية إلى الشهوة.

وهنا نلحـظ أن الغيرة قد ماتت من قلب الرجل الذي تعامل مع واقعة المراودة كما لو كان يتعامل مع خطأ في شئون المنزل..

"وهـذه الغـيرة المفقـودة أثـر مـن آثـار مزاولـة الذنوب والمعاصي، فإن الذنوب تطفئ من القلب نـار الغيرة"

التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن، وأشرف الناس وأعلاهم همة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس، ولهذا كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أغير الخلق على الأمة، والله سبحانه أشد غيرة منه، كما ثبت في الصحيح عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه، والله أغير مني**». وهذا يدلك على أن أصل الدين الغيرة..

"ومن لا غيرة له لا دين له"

فالغيرة تحمي القلب فتحمي له الجوارح، فتدفع السوء والفواحش، وعدم الغيرة تميت القلب، فتموت له الجوارح؛ فلا يبقى عندها دفع البتَّة. والمقصود أنه كلما اشتدت ملابسة العبد للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس، وقد تضعف في القلب جدًّا حتى لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ولا من غيره، وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل في باب الهلاك[(١)].



(١) الداء والدواء (ص٦٦)، بتصرف.

١٣ الحركة النسوية بالمدينة:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (يوسف:٣٠).

حدث ما كان يخشاه العزيز، ذلك الرجل الذي جعل كل همه أن يموت الخبر وألا يتناقله الناس، ولكن نسوة المدينة لم يكن ليخفى عليهن خبر مثير مثل هذا، فالقضية مثيرة لأنها تتعلق بأمر الجنس والشهوة، ومثيرة لأنها تتعلق بزوجة العزيز، والفضائح في هذا الوسط تنتشر انتشار النار في الهشيم، لأنها تكون فضائح متبادلة، ويسعى كل طرف أن يعرف عن الطرف الآخر فضائحه حتى لا يكون لأحد مزية على أحد، فالجميع غارق في وحل الفضيحة.

ويبدو أن لكل مدينة في كل زمان نوادي يتلاقى فيها سادات المجتمع ونسائهم، وغالب هذه الأحاديث في تلك التجمعات تدور حول الشهوات التقليدية من المال والنساء والرياسة، وقد كان من ثمرات هذا التجمع لهؤلاء النسوة الظفر بلقاء مع هذا الفتى الجميل والتمتع بالنظر إليه، كما سيأتي.

وقد استطاع هؤلاء النسوة -من واقع الخبرة والاحتكاك- **أن يربطن بين السبب والنتيجة، فالنتيجة:** هي ذلك الفعل المنكر الشنيع وهي الرغبة في العلاقة الجنسية المحرمة وزادت الرغبة إلى أن وصلت إلى المراودة!! **أما السبب** فهو ما يتساهل فيه كثير من الشباب والفتيات، بل ربما يتباهون به ويتسابقون في تحقيقه، ألا وهو الحب بين الرجل والمرأة خارج إطار الزواج..

"فما يمكن أن يبدأ حبًّا شريفًا -في زعمهم- ينتهي بعد ذلك أليمًا بشعًا على مذبح العفة"

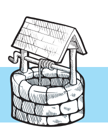
وبنوع من المكر والدهاء **وجهت الحركة النسوية بالمدينة** لومًا وعتابًا إلى زوجة العزيز، ووصفن ما فعلته بالضلال المبين، تُرى لماذا رأى النسوةُ امرأةَ العزيز أنها على ضلال مبين؟ هل لكونهن يَرَيْنَ فيما أقدمت عليه خروجًا على القيم والمبادئ؟ أم أنها حيلة النسوة في الوصول إلى يوسف حيث تمنوا جميعًا أن يَكُنَّ في نفس المنزلة؟

وقد فهمت المرأة هي الأخرى مقصودَهن، ولم تتردد في الاستجابة إلى هذا الطلب حتى تواجه مكرهن بمكر أشد منه وطأة..



" وقد تختلف الأزمنة، وتدور الأيام،ولكن تبقى تلك النوادي كما هي منابرَ لنشر الفسق والفضائح والفجور!! فأحاديث المدينة لدى التجمعات المترفة لا تدور غالبًا إلا حول هذه الأمور "



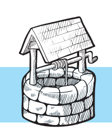


١٤ المكيـدة النسويـة:

قَالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾

(يوسف:٣١).

يبـدو أن لهذه التجمعات سـلطة وسـطوة من قديـم، وإلا لَمَا اهتمت بهن امرأة العزيز، ولا حرصت على التواصل معهن، وقد كانـت المـرأة تعلم مـن طبيعة تلك الطبقـة أنها لو أرسـلت إليهن لتدعوَهن لينظرن إلى يوسـف لوقعن فيما وقعت فيه، فلما اجتمعن لهذا الغرض، وخرج يوسـف عليهن أعظمْنَه، ودُهشن من جماله، وراعَهن حسـنه حتى اضطربت أيديهن، فوقع القطع عليها، وهن في شغل عن ذلك بما رأينه مما تطيش عنده الأحلام، وتضطرب له الأبدان، وتزول به العقول، وقد نفين عنه البشرية، لأنه قد برز في صورة قد لبسـت من الجمال البديع ما لم يعهد على أحد من البشر، ولا أبصر المبصرون ما يقاربه في جميع الصور البشرية، ثم لـمّا نفين



عنه البشرية لهذه العلة أثبتن له المَلَكِيَّة وإن كن لا يعرفن الملائكة لكنه قد تقرر في الطباع أنهم على شكل فوق شكل البشر في الذات والصفات، وأنهم فائقون في كل شيء، كما تقرر أن الشياطين على العكس من ذلك[1].

وبذلك تكون المرأة قد حققت مرادها، وردت إليهن الكيد بكيد مقابل، وكما يُقال:

"ودت الزانية لو زنت النساء جميعًا"

وهذا الأمر من أخطر مفاسد الصحبة السيئة، فإن **الصاحب السيء يسعى إلى جعل صديقه على نفس شاكلته**، فالصديق الذي يدخن لا يهدأ له بال حتى يجعل صديقه يدخن مثله، والصاحب الذي يمارس الفواحش، تجده دائم الإلحاح على غيره لكي يفعلوا مثلما يفعل، **وهذه حيلة خبيثة لإسكات صوت التلاوم، وإماتة فضيلة النصيحة**، فإن الفاعل للمعصية إذا كان متفردًا بفعله، فإنه يصبح غرضًا لنصح الآخرين أو عتابهم، أما إذا اشترك الجميع في الفعل، فلا مجال لأحد أن ينكر على أحد، لأن الكل متلبس بنفس الفعل، وهذا ما سعت إليه امرأة العزيز، ونجحت في تحقيق مرادها.

---

(١) فتح القدير (٣/ ٢٧) بتصرف.

أما كون أن النسوة اللواتي رأين يوسف يُقدمن على تقطيع أيديهن دون أن يشعرن بذلك

" فهذا فيه دلالة على أن المعصية تصيب صاحبها بالسكر وغياب العقل، حيث يفعل الإنسان ما لم يكن ليفعله لو كان عقله سليمًا "

وإذا تأملت في معظم حوادث التحرش والاغتصاب ستجد أن القاسم المشترك في هذه الجرائم أن الجاني قد استغرق في التفكير في الشهوة، سواء كان عن طريق الخيال أو عن طريق مشاهدة الصور العارية، والأفلام الخليعة، حتى تمكنت منه الشهوة، وأذهبت وعي عقله، ورشاده في تصرفه، ولا يعني ذلك عدم مسئوليته عن أفعاله، بل هو عنها مسئول ومحاسب في الدنيا والآخرة، ولكن المقصود أن الشهوة إذا تملكت من صاحبها فإنها تدفعه لارتكاب أفظع الجرائم وأعنفها دون أن يشعر بنفسه، وقد وصف لنا القرآن حال قوم لوط مع الشهوة، فقال تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الحجر: ٧٢).



١٥ وسقطت حُمرة الخجل:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ (يوسف:٣٢).

المشهد كله عبارة عن **مباراة نسوية** ليس ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ دخل بها، ولكنه نوع من البلاء المضاعف الذي لحق به في هذا العالم المسف الخليع، فقد كان بلاؤه مقتصرًا على امرأة العزيز وفي داخل أروقة القصر، ثم زاد بلاؤه بهذا **المجتمع النسوي الساقط**، فيوسف بالنسبة لهن نجم لامع، ووجه جذاب، وقد افتتنت النسوة به بأشد ما افتتنت به امرأة العزيز، لذا ظهرت على المرأة علامات الارتياح والتشفي، فقد نجحت حيلتها وأوقعتهن في عين ما شنعن به عليها.

وهنا تلحظ أن..

> **"المعصية تسقط الهيبة عن صاحبها وتكشف عنه ستار الحياء"**

فلذة الانتصار على غريماتها أورثتها جرأة فجة دفعتها للتعرى الكامل من كل حياء وخلق، فقد تجاوزت المرأة **مرحلة المجاهرة**

بالذنب، والتي تستوجب غضب الرب وعدم غفرانه للذنب، إلى **مرحلة المفاخرة بالفجور، والإعلان بالفسق**، وهذا أشد جرمًا وفسادًا من فعل الذنب ذاته.

في مقابل ذلك كان الله في عون عبده الذي استعصم به، فأسبغ الله عليه ستره وحمايته،فقد أنطق الله المرأة بشهادة النقاء والطهر ليوسف ممن تحاول غوايته وإضلاله، وهاهنا اعتراف صريح منها، لا يحتاج إلى الجهد العقلى السابق الذي بذله شاهد القصر الذي حكم في حادثة قطع القميص..

"فما أجمل أن ينتصر الإنسان على شيطانه وهوى نفسه وغواية مَن حوله، ويعلنها مدوية أنه مستعصم بالله، فمن استعصم بالله فقد أوى إلى ركن شديد"

والملاحظ هنا أن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لم يُعرض عن هذه الفتن المتتالية لأن به عجزًا أو أنه معقدٌ نفسيًّا كما يظن بعض شذاذ العقول، ولكنه كان وثيق الصلة بالله، وهذه الصلة جعلته يبتعد عن الفتنة رغم توقان النفس إليها، بحكم الطبيعة البشرية والمرحلة العمرية.

وتأمل هنا في **انقلاب موازين ذلك المجتمع الفاسد**، فإن الاستعصام بالله صار تهمة يستحق صاحبها التهديد بالسجن، كما هو الحال في كثير من المجتمعات، وعند العديد من الأنظمة التي ترى في الالتزام بدين الله، والتمسك بهديه الظاهر دليلًا على التطرف والإرهاب، وسببًا للاضطهاد والتمييز، والإبعاد عن الوظائف، والحرمان من الحقوق، رغم عدم ارتكابهم أي ذنب أو مخالفة تُلحق بهم العيب أو الذم، ولكنه انحراف المفاهيم، وانقلاب البصائر الذي ابتليت به كثير من مجتمعات المسلمين اليوم.



١٦ التهديد الفاجر:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ (يوسف:٣٢).

انتقلت الجرأة عند المرأة من باب المجاهرة بالفجور إلى إعلان التهديد والوعيد بالسجن والصَّغار ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأنه لم يستجب لرغباتها الدنيئة، ومع هذا التهديد إلا أنها لم تزل مصممة على مراودته تصريحًا بفرط حبها إياه، واستنكافًا أن يُعصى لها أمر، **ولك أن تتخيل المبرر الذي سيدخل به يوسف السجن**.

إنه يرفض أن يستجيب لرغبات محرمة لامرأة عابثة، كان من المفترض أن تكون قدوة لغيرها بحكم مكانتها وموقعها، خصوصًا وأن ما تطلبه المرأة لا يُتصور فيه الأمر، فالأمر في هذه الحالة يتنافى مع أبسط معاني الرجولة، فضلًا عن منافاته للإيمان الواجب، وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»**.

ولتلحظ هنا أن ذهاب الحياء من أحد الآثار المترتبة على فعل الذنوب والمعاصي، ذلك **لأن الحياء مادة حياة القلب**، وهو أصل

كل خير، وذهابه ذهاب الخير أجمعِه. وفي الصحيح عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**الحياء خير كله**». وقال: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت**» والحياء مشتق من الحياة، والغيث يسمى حيا -بالقصر- لأن به حياة الأرض والنبات والدواب، وكذلك سميت بالحياء حياة الدنيا والآخرة، فمن لا حياء فيه فهو ميت في الدنيا شقي في الآخرة.

والمقصود أن الذنوب تضعف الحياء من العبد، حتى ربما انسلخ منه بالكلية، حتى إنه ربما لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه، بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبح ما يفعل، والحامل له على ذلك انسلاخه من الحياء، وإذا وصل العبد إلى هذه الحالة لم يبق في صلاحه مطمع، **فبين الذنوب وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تلازم من الطرفين، وكل منهما يستدعي الآخر ويطلبه حثيثًا**، ومن استحى من الله عند معصيته، استحى الله من عقوبته يوم يلقاه، ومن لم يستح من معصيته لم يستح الله من عقوبته[(١)].

وفي تهديد امرأة العزيز ليوسف بالصَّغار **دليل على جبروت تلك المرأة، وشدة سطوتها**، فهي سيدة القصر الأولى ويبدو أن كلمتها مسموعة، وركنها مهاب أكثر من هيبة الوزير نفسه، وهذا

(١) الداء والدواء (ص٦٨)، بتصرف.

يحدث كثيرًا في تلك الطبقات المنحرفة، حيث تستطيع المرأة أن **توظف أنوثتها** في التحكم والسيطرة على كثير من الرجال، وبالتالي كانت المرأة مستوثقة مما تهدد به، لعلمها السابق أنه لن يجرؤ على معارضتها أحد، ولن يراجعها في قراراتها مسئول حتى لو كان الوزير بنفسه.

ومع أن هذا التهديد يوحي بشدة البطش والجبروت، إلا أنه يوضح تلك النفسية الجاهلة المغرورة، التي تظن في نفسها القوة والمنعة لأجل ملك زائل، وسلطة مؤقتة منحها الله لهم من ملكه الواسع، وسلطانه الدائم، فتسلطوا على رقاب العباد بالظلم والقهر، وهكذا ظنت المرأة أنها طالما حكمت على يوسف بالصغار فسيصير صاغرًا كما أمرت، وغفلت عن أن العز والذل بيد الله عَزَّوَجَلَّ وحده، يقول تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران:٢٦).

" نعم استطاعت المرأة بحكم منصبها ومكانتها أن تأمر بالسجن على يوسف، ولكنها لم ولن تقدر على أن تجعله ذليلاً حتى لو أمرت بحبسه وضربه وإهانته "

لأن وقوع هذا النوع من البلاء على عباد الله لا يعني الذل والمهانة، وإلا فأنبياء الله ورسله وقع له من هذا الأمر شيء كثير، ولو كان هذا الأمر عند الله إهانة لهم لَمَا قدَّره عليهم، لأنهم عند الله هم الكرماء الأعزة، ولكن غاية ما يصيب الإنسان من ذلك نوع من الضرر والأذي لكن تبقى النفوس عزيزة، وتظل الهامات مرتفعة، لأن الانكسار الحقيقي هو انكسار القلب، وما دام القلب شامخًا في السماء لتعلقه بربه، فلن يضره شيء، وما سوى ذلك مظاهر عارضة لا تلبث أن تمكث طويلًا، قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ (آل عمران:١١١).



١٧ الصمـــود المبهـــر:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (يوسف:٣٣).

السـجن مع ما فيه من أهوال وعذاب يتحول عند يوسف إلى محبـوب إذا ما قورن بأهوال وعذاب الوقوع في الشـهوة المحرمة، «وقد فضل يوسـف السـجن مع ما فيـه من الألم والشـدة وضيق النفس على ما يدعونه إليه من الاستمتاع بالمرأة الحسـنة النفيسـة على ما فيه من اللذة، ولكن كُرْهه لفعل الحرام فضَّلَ عنده مقاساة السـجن. فلما علـم أنه لا محيص مـن أحد الأمرين صار السـجن محبوبًا إليه باعتبار أنه يخلصه من الوقوع في الحرام فهي محبة ناشئة عن ملاءمة الفكر، كمحبة الشجاع الحرب»[(١)].

وربـما يتعجـب كثير من الشـباب من هذا الموقـف، فقد يبذل أحدهم وسعه وماله وجهده من أجل الحصول على هذه الشهوة، فكيـف إذا جـاءت لـه بسـهولة ويسر، وكيـف إذا هُدد بالسـجن

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٦٥).

نظير رفضه لهذا العرض المغرى؟! ولكن ما أسهل أن يتبدد هذا العجب إذا علمت أن..

"النفس البشرية قابلة للشيء وضده"

فهي قابلة للكفر والإيمان، والصلاح والفساد، و..

"على قدر ما يربي الإنسان نفسه على قدر ما سيجدها، ويرى أثر تربيته عليها.."

فمثلاً هل نتصور شابًّا يطالع المواقع الإباحية وينظر إلى الصور العارية يمكن له أن ينجو من فتنة كهذه، وهو الذي نفسه تحدثه دائمًا وتتمنى عليه أن يقلد ما يشاهده ويتطلع إليه؟!

واعلم أن اللذة المحرمة ممزوجة بالقبح حال تناولها مثمرة للألم بعد انقضائها فإذا اشتدت الداعية منك إليها ففكر في انقطاعها وبقاء قبحها وألمها ثم وازن بين الأمرين وانظر ما بينهما من التفاوت، والتعب بالطاعة ممزوج بالحسن مثمر للذة والراحة فإذا ثقلت على النفس ففكر في انقطاع تعبها وبقاء حسنها ولذتها وسرورها ووازن بين الأمرين وآثر الراجح على المرجوح فإن تألمت بالسبب فانظر إلى ما في المسبب من الفرحة والسرور واللذة يهُنْ عليك مقاساته وإن تألمت بترك اللذة المحرمة فانظر إلى الألم

الـذي يعقبـه ووازن بـين الألمـين وخاصيـة العقل تحصيـل أعظم المنفعتين بتفويت أدناهما واحتمال أصغر الألمين لدفع أعلاهما.

وهـذا يحتاج إلى علم بالأسـباب ومقتضياتها، وإلى عقل يختار بـه الأولى والأنفـع له منهـما، فمن وفر قسـمه من العقـل والعلم اختار الأفضل وآثره، ومن نقص حظه منهما أو من أحدهما اختار خلافـه، ومن فكر في الدنيا والآخرة علـم أنه لا ينال واحدا منهما إلا بمشقة فليتحمل المشقة لخيرهما وأبقاهما[1].

ويبقـي أن الدعـاء والاسـتعانة بالله هي طـوق النجاة من كل مهلكة وفتنة يتعرض لها الإنسـان،ونجاة الإنسـان من هذه الفتن يكـون على قدر قـوة علاقته بربه، وعلى قدر مـا يبذله من جهد في إلجام نفسه عن شهواتها في فترات الرخاء.



(١) الفوائد (ص١٩٢).

١٨ استجابة سريعة وراحة عجيبة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (يوسف:٣٤).

تخيل كم الراحة النفسية التي تحدثها هذه الآية... الناس يقولون بالعامية في مثل هذه المواقف «**همّ وانْزَاح**».. فالقضية يسيرة عند المخلصين والصادقين من عباد الله... يوسف دعا ربه بصدق وإخلاص فاستجاب له ربه على قدر ما امتلأ به قلبه من اليقين به والتوكل عليه...على الرغم من أن المحنة قد تضاعفت عليه، فبدلًا من مقاومة إغراء امرأة واحدة في بداية الأمر، اجتمع عليه النسوة وصارت لهن فيه أطماع ومآرب، ربما تقترب من نفس أطماع امرأة العزيز، ومع ذلك كان الدعاء بصدق وإخلاص كفيلًا بإنقاذه من هذه المحنة..

"ولم تذكر لنا الآيات سببًا ظاهرًا لصرف هذا الكيد الجماعي سوى دخوله السجن، فسبحان من يقدر ما يكون ظاهره الشر، وهو في باطنه الرحمات والخيرات التي لا تعد ولا تحصى"

وقد حُكي أن امرأة جميلة كانت بمكة، أرادت أن تفتن عالمًا يقال له عبيد بن عمير، فأتته كالمستفتية فوقف معها في ناحية من

المسجد الحرام فأسفرت عن وجه مثل فلقة القمر فقال لها: يا أمة الله استتري فقالت: إني قد فتنت بك قال: إني سائلكِ عن شيء فإن أنتِ صدقتيني نظرت في أمرك قالت: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك قال: أخبريني لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك أكان يسرك أن أقضي لك هذه الحاجة قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

قال: فلو دخلت قبرك وأُجْلستِ للمساءلة أكان يسرك أني قضيتها لك قالت: اللهم لا قال: صدقت قال: فلو أن الناس أُعطُوا كتبهم ولا تدرين أتأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك أكان يسرك أني قضيتها لك قالت: اللهم لا قال: صدقت قال: فلو أردت الممر على الصراط ولا تدرين هل تنجين أو لا تنجين أكان يسرك أني قضيتها لك قالت: اللهم لا قال: صدقت قال: فلو جيء بالميزان وجيء بك فلا تدرين أيخف ميزانك أم يثقل أكان يسرك أني قضيتها لك قالت: اللهم لا قال: فلو وقفت بين يدي الله للمساءلة أكان يسرك أني قضيتها لك قالت: اللهم لا قال: صدقت قال: اتقي الله فقد أنعم الله عليك وأحسن إليك قال: فرجعت من عنده تائبة[١].

---

(١) روضة المحبين (ص٣٤٠)، بتصرف.

التواصل بين القارئ والكتاب

ما هي الدروس التي تعلمتها من هذا المشهد؟ وما هي المشاعر والانطباعات التي استقرت في وجدانك أثناء قراءتك للمشهد؟ وما هي النصائح التي يمكن أن تنصح بها غيرك تطبيقًا لما تعلمته، وإعمالًا لواجب النصيحة مع من تحب له الفوز والنجاة؟

☑ **الدروس التي تعلمتها هي:**

١- ....

٢- ....

٣- ....

☑ **المشاعر التي استقرت في وجدانك هي:**

١- ....

٢- ....

٣- ....

☑ **النصائح التي تحب أن تنصح بها غيرك هي:**

١- ....

٢- ....

٣- ....

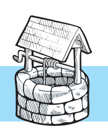

المشهد الرابع
٤


يوسف في السجن



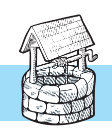

محتويات
المشهد



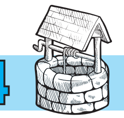


المشهد كما وصفه القرآن

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ



ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي
ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ
أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ
خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا
تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ
﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ
فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ
يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ
أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا
حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ
بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾
ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ
ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا
بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا
خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا



عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (يوسف:٣٥-٥٣).



تفاصيل المشهد

صرف الله عن يوسف كيد النسوة وقدر عليه دخول السجن، فالقوم **قرروا أن يميتوا القضية بسجن صاحبها** بعدما عرفوا براءته، وصدقه وعفته ونزاهته، دخل يوسف السجن، وبداخل السجن عالم آخر، وحياة أخرى، منهم المظلوم ومنهم الظالم، ومنهم النادم التائب، ومنهم الفاسق الفاجر.

وأحوال الناس في السجن مختلفة متباينة، وكل منهم يرسم نمط حياته بالشكل الذي يراه..

”والدعاة في السجن كما هم بخارجه، حملة دعوة وأصحاب رسالة“

وهكذا كان يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في السجن قد اشتهر بالجود والأمانة، وصدق الحديث، وحُسن السمت، وكثرة العبادة.

هذه الأخلاق الظاهرة من الإحسان إلى أهل السجن، وعيادة مرضاهم، والقيام بحقوقهم. دفعت رفقاءه بالسجن إلى الأنس به والقرب منه، وقد قص عليه اثنان منهم ما رأوه في منامهم، وقد فسر يوسف لهما ما رأياه في منامها، الذي مؤداه نجاة فرد والحكم

على آخر بالإعدام، ومن باب الأخذ بالأسباب أوصى يوسف من غلب على ظنه نجاته أن يُذَكّر الملك بقضيته.

خرج هذا الرجل من السجن كما توقع يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولكنه نسي وصية يوسف له، وكذلك تناساه من سجنوه فمكث في السجن ما يقرب من عشر سنين، إلى أن رأى الملك رؤيا عجز عن تأويلها، وكذلك عجز كل من كان حول الملك، وفجأة تذكر جليس الملك ما كان من شأنه مع يوسف داخل السجن، فأمرهم بإرساله إليه ليستفتيه في شأن هذه الرؤيا.

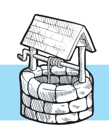
توجه السجين القديم إلى يوسف داخل محبسه، وقص عليه من نبأ الرؤيا، وبلا تمنُّع أو تردُّد قام يوسف بتفسير الرؤيا ووضع لهم خطة مواجهة الأزمة المنتظرة، وانصرف الرجل من عنده لينقل لقومه كلام يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وهنا طلبه الملك ليكرمه على ما أسدى لهم من معروف، فعاد رسول الملك إلى يوسف داخل السجن، فأبى يوسف الخروج إلا بعد أن يعترفوا ببراءته مما اتهمته به امرأة العزيز، ومن كيد النسوة اللواتي أتت بهن، وهذا من عزة نفس يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد شهد لذلك نبينا الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال

رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي**».

جمع الملك النسوة وسألهن عن حالهن مع يوسف، فشهدن له جميعًا وأثنَيْنَ على أخلاقه وصلاح حاله، ***ثم كانت المفاجأة المذهلة*** أن قامت امرأة العزيز بالاعتراف على نفسها أمام هذا الملأ أنها هي التي راودت يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن نفسه، وأقرت بصدقه وبراءته.







رسائل من قلب الحدث

تتجلى في هذا المشهد من القصة عدة معاني أساسية، أبرز القرآن ملامحها، وأوضح معالمها، فمن ذلك إشارة القرآن إلى سبب الأزمات الموجعة التي تصيب البلاد والعباد، فإنه إذا انتشر الظلم، وعم الفساد، فإن سنة الله في إهلاك الأمم الظالمة واستبدالها لا يمكن أن تتخلف أو تتبدل، وقد يبتليها الله بأنواع من الأوجاع والأمراض والأوبئة، والأزمات التي لا تملك معها حيلة، ولا تهتدي سبيلًا، وهنا يظهر مدى ضعف الإنسان وقلة حيلته، ومحدودية قوته..

"فهذه النظم التي تدعي القوة والهيمنة والجبروت، ربما تقف بأكملها عاجزة عن مواجهة أي تغير طفيف في نظام الكون الذي وضعه الله في الأرض"

فلا تحتمل بردًا شديدًا، ولا حرًّا ملهبًا، ولا تحتمل براكين أو زلازل أو سيول أو أعاصير أو فيضانات، أو جدب في الأرض، أو تيبس في الزرع، ولا تحتمل الحشرات والطيور والقوارض والحيوانات إذا خرجت عن نَسَقِها، فكل هذه الأشياء جنود

مجنـدة من ربها، ولا يعلم جنود ربك إلا هو، وقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي: «يَا مَعْشَـرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُـوذُ بِـاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُـنَّ: لَمْ تَظْهَـرْ الْفَاحِشَـةُ فِي قَـوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُـوا بِهَـا، إِلَّا فَشَـا فِيهِمُ الطَّاعُـونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّـتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْـلَافِهِمْ الَّذِينَ مَضَـوْا. وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيـزَانَ، إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّـنِينَ وَشِـدَّةِ الْمُؤْونَـةِ وَجَوْرِ السُّـلْطَانِ عَلَيْهِـمْ. وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِـمْ، إِلَّا مُنِعُـوا الْقَطْرَ مِنْ السَّـمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِـمُ لَمْ يُمْطَرُوا. وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُـولِهِ، إِلَّا سَـلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِـمْ، فَأَخَـذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ. وَمَا لَمْ تَحْكُـمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ، إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»[١].

كما أشـارت الآيـات إلى أن التوبـة ترفع البـلاء، **فما نزل بلاء إلا بذنـب ومـا رُفع إلا بتوبـة**، والمجتمع الذي وصفـه لنا القرآن في تلك الفترة لا يُستبعد عليه وقـوع مثل هذه البلاءات، فالطبقة الحاكمة باطشة ظالمة، تمتلئ السجون في عهدها وفق ما يرونه، وما يقررونـه، فلا محاكمات عادلـة، ولا قرارات منصفة، وفي مثل هذه

(١) رواه ابـن ماجـه برقـم (٤٠١٩)، وصححه الألبـاني في صحيح الجامع برقم (٧٩٧٨).

البيئة المريضة لا يمكن أن تتواجد الكفاءات الحقيقية، إنما يتواجد فقط من يمتلك **كفاءة التملق والنفاق**.

والطبقة الراقية لاهية عابثة، غارقة في الشهوات والملذات، وتتبع أخبار الفضائح الجنسية، والعلاقات الغرامية، كما صوره لنا بجلاء مشهد اجتماع نسوة المدينة على يوسف، من هذه الملامح يتضح أن سوس الفساد قد نخر في أعمدة الدولة حتى أوشك أن يقضي عليها لولا أن تداركهم الله، وبعث إليهم يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ليكون سببًا في إنقاذهم بعد أن أوشكت سفينة مجتمعهم على السقوط في القاع. وفيما يلي شيءٌ من الحِكَم والعِبَر والدلالات التي تناولها هذا المشهد:



١ الحكم الجائر:

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾ (يوسف:٣٥).

يتنقل بنا هذا المشهد بين جدران السجن، كشاهد على ظلم بعض الحكام عبر الزمان..

"والسجن عادة لا يكون حلًّا للجرائم ولا للمشكلات، بل هو في الحقيقة يمثل مدرسة عليا في تعليم الإجرام، وتطوير مهارات المجرمين"

لذلك لا تجد في شريعة الرحمن عقوبة تسمى سجنًا، وإن اضطر القاضي إلى هذه العقوبة من باب التعزير، فتكون في أضيق الحالات، **وهي تلك الحالات التي يتم التأكد فيها أن السجن يكون بمثابة إعادة التأهيل في جو معقم**، بعيدًا عن رفقاء السوء، وأصحاب الغي والفساد، لكن السجن الذي اخترعته الحضارة الغربية، وسار في ركابها كثير من المجتمعات الإسلامية، لا يمكن أن يقضي على الجريمة، ولا أن يتصدى لها بحال، بل كل يوم تمتلأ السجون أكثر، وتضطر الأنظمة الحاكمة أن تشيد سجونًا جديدة لاستيعاب أعداد أخرى من المتهمين وهكذا.

"والحكام الظلمة والأنظمة المستبدة لا يحكمون بمقتضى العدل والحق، وإنما يحكمون وفق الآراء والأهواء"

لذا فقد بدا لهم أن يسجنوه بعد أن ظهرت دلائل براءته..

"وهذه الفوضى يفوق ظلمها ما يمكن تسميته محاكمات هزلية، فليس ثمة محاكمة أصلاً، فهم الخصم والحَكَم والجلاد"

وبالتالي فالنتيجة المنطقية لذلك أنهم قرروا سجنه حتى حين، إذ لو كانت المحاكمة عادلة لكانت العقوبة مقدرة، ولكنهم سجنوه بالهوى وسوف يفرجون عنه بنفس الطريقة، والعجيب في أمرهم أن الرؤية جماعية والقرار جماعي والكل متفق على نفس الرأي بلا صوت عاقل منصف يوقف عجلة الظلم.

ولا تكتمل منظومة الحكم الجائر إلا بقضاء فاسد، لذا كان من ضمن أهم أهداف النظم السلطوية الشمولية أن تسعى لإفساد القضاء، وتطويعه لتوجهاتها وأهدافها، وهو ما يسمونه بـ«تسييس القضاء»، وهو اللفظ المخفف لمصطلح فساد القضاء وتدجينه، والقضاء بالذات عندما يفسد ويصير الظلم عنوانا له فلا تنتظر بعد ذلك خيرًا؛ لأن..

"العدالة هـي الحصن والملاذ الأخير للمظلومين، فـإذا سقطت العدالة في وحل الظلم، فاعلم أن هذا الحكم إلى زوال مهما طال به الزمن"

وتأمل في لفظة ﴿بَدَا لَهُمْ﴾ تشـعر بحجـم المرارة والألم الذي يعاني منه المظلومون والمقهورون والمعذبون في أنحاء الأرض..

"بـدا لهم تسـاوي في تـعبيرنـا الـدارج «اللي هما شـايفينــه حيعملوه» بغض النـظر عـن توافر الأدلة من عدمها"

فمـن يرونـه بريئًـا فسـيكون كذلك حتى لـو كان مـن أظلم الظالمـين، ومن قـرروا أن يجعلوه متهمًا، فسـيكون كذلك حتى لو كان مـن أشرف الشرفاء، **وهذا هو قانون الظلم والبغي والعدوان الذي تقـوم عليه كثير من الأنظمة السياسـية في مشـارق الأرض ومغاربها.**



٢ الإنسان أسير الإحسان:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(يوسف:٣٦).

لم يتخلَّ يوسف عن أخلاقه وسمته الصالح تحت ضغوط النظام الظالم، ولم يتذرع بأنه وقع عليه ظلم وبغي، ولكن من رآه داخل السجن عرف من معاملته وملامح وجهه أنه من المحسنين ولم تؤثر فيه الفتنة، ولم تغيره المحنة، ولكنه كما هو، وإضافة لذلك فإنه لم يتخلَّ عن واجبه في الدعوة إلى الله حتى داخل السجن.

ولاحظ هنا أن سيما الصالحين تُعرَف في وجوههم، فهذان الفتيان توسما من يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كمال العقل والفهم فظنا أنه يحسن تعبير الرؤيا ولم يكونا عَلِما منه ذلك من قبل، وقد صادفا الصواب(١).

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٦٩).

 ٣ روشتــة دعويــة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾

(يوسف:٣٧).

أعطى لنا يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ **نموذجًا للداعية الماهر**، الذي:

دعامة نجاحه الأولى: هي حسن الخلق وحسن المعاملة، والإحسان الذي يجذب الناس إلى الشخص بطريقة لا إرادية، ثم تأتي:

الدعامة الثانية: وهي الإحسان العملي الفعلي ببذل الجهد وتقديم الخدمات وإسداء النصح بلا مقابل ولا مآرب، وهذا مما يعلق القلوب بأهل الإحسان ويحببهم فيهم، ثم تأتي:

الدعامة الثالثة، **في تعريف الحق للناس تعريفًا عامًا دون الدخول في مصادمات مع الأفكار المضادة**، ودون دعوتهم بشكل صريح إلى التخلي عن دينهم، أو التعرض لباطل معتقداتهم،

حتى إذا ملأ أيديه منهم، ووثقوا فيه، وأطمأنوا لجانبه صارحهم وكاشفهم عن حقيقة معتقداتهم، إذ أصبحت نفوسهم قابلة لهذا النقاش، مستوعبة لهذا النوع من الحوار والمناظرة.

فالداعي يحتاج أولًا إلى كسب ثقة المدعو وهي قضيه مهمة ومحورية في مراحل الدعوة، لذا قال لهم يوسف: ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ ومعنى ذلك أنه يعلم شيئا من الغيب -بما تعلمه من ربه- وأنه لا يأتيهما إلى السجن طعام إلا أخبرهما بماهيته قبل أن يأتيهما، وهذا ليس من جواب سؤالهما تعبير ما قصَّاه عليه، بل جعله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مقدمة قبل تعبيره لرؤياهما بيانا لعلو مرتبته في العلم، وأنه ليس من المعبرين الذين يعبرون الرؤيا عن ظن وتخمين، وإنما قال يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لهما بهذا ليحصل الانقياد منهما له فيما يدعوهما إليه بعد ذلك من الإيمان بالله والخروج من الكفر[١].

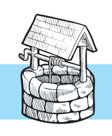


(١) فتح القدير (٣/ ٣٢).

٤ إعلان دعوة التوحيد:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ (يوسف:٣٩).

خمس آيات فاصلة بين سؤال الفتيان وبين إجابة يوسف لسؤالهما، هذه الآيات الخمس توضح الرحلة الدعوية التي قضاها يوسف مع غيره من النزلاء والتي اشتملت على أصول التوحيد والنبوة والإيمان، مع أنهما سألاه عن رؤيا وينتظران الإجابة عن الرؤيا لكن ما كان يوسف ليجيبهم حتى يعلمهم ما هو أهم،كما ثبت في الصحيح [عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَتَى السَّاعَةُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟» قَالَ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرِ صَلَاةٍ وَلَا صَوْمٍ وَلَا صَدَقَةٍ وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ قَالَ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»] يعني ما هو الأهم الآن هل هو معرفة وقت الساعة أم الاستعداد لها، فصرف السائل عن الأقل أهمية إلى الشيء الأكبر أهمية. فهما سألا عن الرؤيا فجاءتهم الإجابة أولًا عن التوحيد.



لقـد رسـم يوسـف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بهـذه الكلـمات القليلـة الناصعة الحاسـمة المنـيرة، كل معـالم هـذا الديـن، وكل مقومـات هـذه العقيـدة. كما هز بهـا كل قوائم الشرك والطاغـوت والجاهلية هزًا شـديدًا عنيفًـا.. وهو سـؤال يهجم على الفطـرة في أعماقها ويهزها هـزًّا شـديدًا.. **إن الفطـرة تعرف لها إلهًـا واحدًا ففيـم إذن تعدد الأرباب؟..**

إن الذي يسـتحق أن يكون ربًّـا يعبد ويطاع أمره ويتبع شرعه هـو الله الواحـد القهار. ومتـى توحد الإله وتقرر سـلطانه القاهر في الوجـود فيجـب تبعًا لذلـك أن يتوحد الرب وسـلطانه القاهر في حيـاة النـاس. وما يجوز لحظة واحـدة أن يعرف النـاس أن الله واحـد وأنه هو القاهر، ثم يدينوا لغيره ويخضعوا لأمره، ويتخذوا بذلـك من دون الله ربًّـا.. إن الرب لا بد أن يكـون إلهًا يملك أمر هذا الكون ويسيره.

ولا ينبغي أن يكون العاجز عن تسـيير أمر هذا الكون كله ربًّا للنـاس يقهرهم بحكمه، وهو لا يقهر هذا الكون كله بأمره! والله الواحد القهار خير أن يدين العباد لربوبيته من أن يدينوا للأرباب

المتفرقة الأهواء الجاهلة القاصرة العمياء عن رؤية ما وراء المنظور القريب -كالشأن في كل الأرباب إلا الله- وما شقيت البشرية قط شقاءها بتعدد الأرباب وتفرقهم، وتوزع العباد بين أهوائهم وتنازعهم[1].



(١) في ظلال القرآن (٤/ ١٩٨٩).

٥ توكل وأخذ بالأسباب:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (يوسف:٤٢).

يبدو أن الحين الذي ضربوه لأنفسهم والذي عبر عنه القرآن بقوله: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (يوسف:٣٥) لم يحن بعد، وهذا هو المتوقع..

"فليس ليوسف ذنبٌ ظاهر ليعرفَ له عقوبةً مقدرة ذات أجل محدد"

وليس له مَن يدافع عنه أو يذكرهم بقضيته. حتى صديق السجن ورفيق المعاناة قد نسيَه في خضم الانشغال والغفلة، مع أن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أسدى إليه معروفًا لا يُنسى، حيث أنقذه من الحيرة والقلق عندما فسّر له رؤياه التي رآها في السجن، وقد حمَّله يوسف أمانةَ تذكيرِهم بشأنه؛ لعلمه أنهم سينسونه أو يتناسونه ولكنه لم يفعل.

ومن ملامح الأمل في هذا الموقف أن الله حكم بقطع الأسباب الأرضية كلها عن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فلم يجعل قضاء حاجته على

يـد عبد ولا سـبب يرتبط بعبد، ومـا ذاك إلا ليعلق قلبه به وحده، فهـذا الصنف من البـشر لابد أن يبقي متعلقًا بالسـماء فقط، حتى يعلنـوا خلع كل حولهم وقوتهم إلى حول الله وقوته، مع أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله، ومن حق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو المسـجون ظلمًا وقهرًا أن يسـعى لرفع الظلم عن نفسـه بالأسباب المشروعـة، ولكـن الله أراد لـه الحـال الأتـم، والوضـع الأكمل، وكتب له الخروج من السـجن بأفضل الصور التي من الممكن أن يخرج بها سجين من سجنه.

ولنتأمل في طول المدة التي قضـاها يوسف في السجن، رغم أن السـجين يعاني في سجنه من أنواع مختلفة من المعاناة، يكفي أنه مقيد مسلوب الحرية، فضلًا عن أنواع المنغصات الأخرى في المأكل والمـشرب والملبس وقضـاء الحاجة،وفي النـوم، ومع ذلك يمكث يوسـف في السـجن مـا يقرب من عـشر سـنوات،ولو أراد الله أن يُظهر براءته بعد عدة أشـهر من دخوله السجن لفعل عَزَّوَجَلَّ ولكن قدَّر الله على يوسـف ذلك لأنـه يختار له الأفضـل مكانة،والأعلى منزلة..

"فبقاء يوسف في السجن طول هذه المدة لم يكن عذابًا له بقدر ما كان تهيئة لنفسه، وإعدادًا لقلبه لِمَا سيواجهه بعد خروجه من السجن"

وبالتالي لم يكن السجن له عقوبة أو إهانة لأنه كريم عند الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن كان السجن بمثابة إعداد وتربية وتزكية من نوع خاص، علم الله أنها لا تكون إلا بذلك، فقدر عليه ما في ظاهره الألم، ولكنه فيه الخير والسعة والسعادة، وقد خرج يوسف من السجن وكأنما وُلد من جديد، **ذلك ليعلم عباد الله المخلصين أنهم في كنف الله ورعايته، وأن الله لن يُسلمهم ولن يخذلهم، طالما توكلوا عليه ووثقوا به وصبروا من أجله.**



٦ رؤيا مرعبة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾

(يوسف:٤٣).

مرت بضع سنين ويوسف مسجون ظلمًا وعدوانًا لدى دولة الملك، ولم تكد هذه السنون أن تنقضي إلا ووقعت الدولة في أزمة طاحنة، هذه الأزمة بدأت برؤيا عجز الملك عن تفسيرها، ثم انزعج أكثر عندما عجزت حاشيته جميعًا عن تأويلها، لعلمه أن لها صلة مباشرة باستمرار ملكه وتماسكه.

وتلفت الملك يمينًا وشمالًا، فلم يجد إلا **الملأ المعروف** لديه، ملأ يغلب عليهم الولوغ في الفساد والشهوات، **ملأ لا يعرفون للعدل طريقًا**، إنما يعرفون مصالحهم ومصالح ملكهم، حتى ولو وطِئُوا رقاب الخلق في سبيل تحقيق ذلك، هذا من حيث الأمانة، **أما من حيث الكفاءة** فغالب أحوال هذه الطبقة أنها لا تصل عادة لهذه المكانة إلا لما تتمتع به من مهارات في التملق والتزلف.

وقد يتعجب الإنسان من اهتمام الملك بهذه الرؤيا هذا الاهتمام الشديد، فقد كان من الممكن أن يهمل أثرها، ويتناسى ذكرها، فهي في النهاية مجرد رؤيا، ولكن مقدر المقادير عَزَّوَجَلَّ جعل في اهتمام الملك بهذه الرؤيا بداية انفراج الأزمة مع يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، **فيأتي الإفراج بطريقة لم تكن في حسبان بشر، ولا يمكن أن تخطر على بال أحد**، ولكن ليعلم الجميع أن للكون ربًّا مدبرًا، عليمًا خبيرًا، حكيمًا عادلًا، وهذا سبب كافٍ جدًّا لكي يعيش الإنسان في راحة نفسية، واطمئنان داخلي..

> **"فعلِّقْ قلبك بالسماء، ودع عنك أمر البشر، فهم أشد عجزًا من أن ينفعوا أنفسهم أو يضروها، فضلًا عن أن يفعلوا ذلك مع أحد من البشر"**



٧ الحاشية الجاهلة المغرورة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ (يوسف:٤٤).

"فن تسطيح المشكلات والتهوين من شأنها، بالاضافة إلى فن التهويل وصناعة الفزاعات هما أشهر وسيلتين يتم من خلالهما التأثير على أنظمة الحكم المختلفة"

فربما يهونون من شأن المشكلة الضخمة الخطيرة، ويضخمون من حجم المشكلة التافهة اليسيرة، وكان توجههم هنا أنها أضغاث أحلام، يعني لا شيء، ليست ذات قيمة، لا تشغل نفسك بها، «فجمعوا بين الجهل والجزم، بأنها أضغاث أحلام، والإعجاب بالنفس، بحيث إنهم لم يقولوا: لا نعلم تأويلها، وهذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحجا.

وهذا أيضًا من لطف الله بيوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ. فإنه لو عبرها ابتداء - قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم، فيعجزوا عنها - لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا

عن الجواب، وكان الملك مهتما لها غاية الاهتمام، فعبرها يوسف- وقعت عندهم موقعًا عظيمًا.

وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم، بعد أن سألهم فلم يعلموا. ثم سأل آدم، فعلمهم أسماء كل شيء، فحصل بذلك زيادة فضله، وكما يظهر فضل أفضل خلقه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القيامة، أن يلهم الله الخلق أن يتشفعوا بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فيعتذرون عنها، ثم يأتون محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقول: «**أنا لها أنا لها**» فيشفع في جميع الخلق، وينال ذلك المقام المحمود، الذي يغبطه به الأولون والآخرون، فسبحان من خفيت ألطافه، ودقَّت في إيصاله البر والإحسان، إلى خواص أصفيائه وأوليائه»[١].



(١) تفسير السعدى (ص٣٩٩).

٨ الدولة في أزمة والمنقذ فرد:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ (يوسف:٤٥).

يبدو أن الملك لم يقتنع بهذا التناول الساذج للقضية، فإحساسه يملي عليه بأن وراء هذه الرؤيا أمر خطير، لذا لم يكتفِ باستشارتهم، ولكن يبدو أنه ظل منشغلًا بهذا الأمر مهمومًا به، وهنا وجد ساقي الملك الفرصة سانحة لكي يعرض خدماته، ويستعرض مهاراته، ونسب الأمر لنفسه كأنه صاحب الفضل في ذلك.

وفي هذه اللحظة تذكر هذا الصديق يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، تذكره عندما وقع في ورطة، وعندما اشتدت حاجته إليه، ولم يتذكره عندما كان يوسف في أمس الاحتياج له، خصوصًا وأنه مقرب من الملك، ويراه كل يوم، ولكن يبدو أن تلك الشخصية الوصولية التي لا تعرف إلا لغة المصالح والمنافع، يسهل عليها أن تتعايش مع هذا السلوك الأناني.

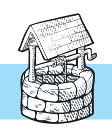
وإلا فبأي وجه سيقابل ذلك الساقي يوسف، بعد أن هجره سنوات متطاولة، وقد كان من الممكن أن يبرز له دور في إنقاذه

أو التخفيف عنه، خصوصًا وأن يوسف مد له يد العون وهو سجين، وخفف عنه معاناته بتأويل رؤياه بلا مقابل، وقد كان في مقدوريوسف أن يتركه فريسة القلق والجزع والاضطراب.

"وما أدراك ما حال السجين الذي يفترسه القلق في ليله ونهاره، فمصيره مجهول وغامض، فإما أن يبقى في السجن، وإما أن يُحكم عليه، وإما أن يُفرج عنه، وكلها احتمالات متساوية"

ومع ذلك فلم يجد هذا الرجل أدنى حرج في أن يذهب إلى يوسف بنفسه، لأنه كان يرغب في أن ينال هذه الحظوة والمكانة عند الملك، وإلا فقد كان بإمكانه أن يدلهم عليه فيبعثوا له غيره، تفاديًا لصعوبة اللقاء بينهما بعد هذه المدة الطويلة من السجن، ولكن لا مجال للحديث مع هذه الطبقة عن الحياء، ولا عن ماء الوجه،لأنها لا تفهم إلا لغة المصالح، مهما كلفتها تلك المصالح من ضرائب تُخصم من جاههم وكرامتهم.

"وإذا كان وجود رجل من أهل الفساد على صلة برجل من أهل الصلاح مؤديًا إلى حل الأزمة، فما الظن إذا تواجد أهل الصلاح والأمانة في أروقة الحكم والملك"



حتـى لـو كانوا في وقـت من الأوقـات قليلي العـدد محدودي التأثير، فربما ظهر دورهم وقت الأزمات، وربما عجزوا عن أشياء كثـيرة ولكنهـم ينجحون في أمور لا يملك معهـا الآخرون إلا أن ينقادوا لهم ويسلموا زمامهم إليهم.

وفي هذه الأزمة نجد أن المنقذ الحقيقي غائب عن المشهد، بل في أبعد مكان عنه وهو السـجن، ولكن يوجد من يعرفه ويستطيع التوصل إليه، فكان هو السبيل الموصل ليوسف، ورغم أن التغيير في هذا الوسـط شـديد الصعوبة، إلا أنه يبقى وسـيلة من وسـائل الإصلاح التي يجمل الاستعانة بها، والطرق على أبوابها.



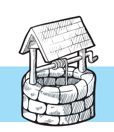
٩ الدولة تنتظر المنقذ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

(يوسف:٤٦).

أولى الانكسارات النفسية لدولة الظلم أمام صبر يوسف وصدقه وثباته، فالملك وحاشيته وجنوده يقفون عاجزين أمام أزمة كبرى من المتوقع أن تعصف بمُلكهم وتذهب به حيث لا رجعة، ولا يجدون منقذًا لهم من أزمتهم إلا من سجنوه ظلمًا وعدوانًا ليرسلوا إليه مندوبهم ليطلب منه في تذلل وخضوع الفتيا في هذه القضية الشائكة، وسوف تتوالى المنح الربانية على يوسف منذ ذلك الوقت، ويطيل الله في عمره لكي ينال مكافأة صبره طيلة هذه السنين.

ويظهر في هذا الموقف النبيل أخلاق يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فيظهر **خلق الصفح** عن ذلك الرجل الذي نسي أمره ولم يعتنِ بشأنه،



ثـم يأتي بعد هذه السـنين ليطلب منه المعاونـة والخدمة، لم ينقل لنا القرآن كلمة عتاب واحدة قالها يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للسائل عندما أتى ليسـتفتيه، إن أحدنا لو تأخر عليه أحد من الناس في خدمة يؤديها لـه أو في مهمـة يطلبها منـه لربما قاطعـه ولم يلتقِ به ثانيـةً، فكيف بيوسـف الذي مكث في السـجن كل هذه السنين لتقاعس الرجل ونسيانه لشأنه.

كما يظهر من هذا الموقف **خلق الكرم**، فالرجل السـائل يعرف جيـدًا أنـه لا شيء في دنياهم يتم بلا مقابل، فكل خدمة لها مقابلها المادي، والقضية التي يسألونه عنها تستحق أن تدفع فيها الأموال الطائلـة، وقد يذهب هذا السـائل ولا يعود ثانية كـما فعل في المرة الأولى، ومع ذلك أداها لهم يوسف بلا مقابل.



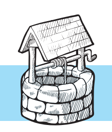
١٠ خطة مواجهة الأزمة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۝٤٧ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۝٤٨ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ (يوسف:٤٧-٤٩).

فهم يوسف طبيعة الأزمة التي تمر بها الدولة، ووضع لهم خطة عمل تفصيلية يستطيعون من خلالها أن يواجهوا تلك الأزمة، وأن يخففوا من عنفوانها، هكذا بالمجان دون أن يطلب منهم مقابلًا، ودون أن يشترط عليهم شرطًا.

أتصور لو كان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من ذوي **النفسيات الانتقامية** -التي تتشفى في مجتمعاتها وتتمنى لها الخراب- لامتنع عن تقديم المشورة والنصيحة إليهم، ولامتلأ زهوا وفرحا من داخله، ولِمَ لا وهو البريء الذي زجوا به في السجن بلا ذنب ولا جريرة..

> **"ولكن النفوس العالية تتسامى على حقوقها الشخصية وتتنازل عن مصالحها الذاتية تضحيةً بها من أجل النفع العام والمصلحة المشتركة"**



هذا من ناحية حرصه على أقوات عموم الناس الذين لا علاقة لهم بفساد الملك وظلمه، فهؤلاء منهم الطفل والمرأة والشيخ الكبير، والضعيف واليتيم والمسكين، وربما إذا وقعت الأزمة نجا منها الملك وحاشيته ومن معه، وهلك فيها عموم الناس ممن لا حول لهم ولا قوة.

أما من ناحية العلاقة مع القصر والملك فهذا البذل المجاني للخدمة سوف تكون له قيمته بعد ذلك، ويبدو أن تقدير يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لطبيعة قومه وطريقة تفكيرهم، هي التي حتمت عليه أن يسلك هذا المسلك، وإلا فقد كان أمامه أن يشترط عليهم الاعتراف ببراءته أولا قبل أن يُفتيهم في شيء، ولكن علمه بالواقع وحسن قراءته للموقف جعلته يرجح أن المسار الذي سار فيه أكثر نجاحًا، وأسرع تأثيرًا.



١١ الإفـراج الملكـي:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ (يوسف:٥٠).

انبهر الملك بهذه القدرات الفائقة ليوسف، وتعجب من وجود أمثاله داخل السجن، وأوصى بالإفراج عنه والإتيان به لمقابلته وتكريمه، وأرسل في طلبه وإخراجه، ولكن يوسف أبَى أن يخرج، مع أن الذي يطلبه هو الملك شخصيًّا (الذي يرأس العزيز)، ومع أن مدة بقائه في السجن امتدت إلى سنوات متطاولة، ومع أنه مظلوم لا ذنب له، ومع ذلك لم يقبل بهذا الإفراج المتخفي دون أن يضع النقاط على الحروف، ودون أن يعترفوا هم ببراءته، وأن كل ما نسبوه إليه كان محض كيد ومكر.

فقد «تأنى وتثبت في إجابة الملك، وقدم سؤال النسوة، ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن فيه، لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده، ويجعلوه سلّما إلى حط منزلته لديه، ولئلا يقولوا:

ما خلد في السجن إلا لأمر عظيم وجرم كبير، حق به أن يسجن ويعذب، ويستكفّ شره»[1].

وقد كان لسنين السجن أثرها البالغ في تربية يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد سكبت في قلبه جرعات مكثفة من السكينة والثقة والطمأنينة، وإلا **فتأمل الفارق بين الموقف** الذي يقول يوسف فيه للفتى: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، والموقف الذي يقول له فيه: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾، **فالأول** كان من باب الأخذ بالأسباب الظاهرة المأمور بها شرعًا، **والثاني** كانت له أهداف أبعد من أن ينجو هو بنفسه، وإنما كان الهدف هو إنقاذ الأمة بأكملها خصوصًا بعد ظهور عجز الدولة في أزمة المجاعة، لذلك تواضع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جدًّا حينما قال: **«رحم الله أخي يوسف لو كنت مكانه لأجبت الداعي»**.

وجعل يوسف السؤال عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن دون امرأة العزيز تسهيلًا للكشف عن أمرها، لأن ذكرها مع مكانة زوجها من الملك ربما يصرف الملك عن الكشف رعيًا للعزيز، ولأن حديث المتكأ شاع بين الناس، وأصبحت قضية يوسف

(١) محاسن التأويل (٦/ ١٨٦).

عَلَيْهِ السَّلَامُ مشهورة بذلك اليوم، ولأن النسوة كن شواهد على إقرار امرأة العزيز بأنها راودت يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عن نفسه. فلا جرم كان طلب الكشف عن أولئك النسوة منتهى الحكمة في البحث وغاية الإيجاز في الخطاب[١].



(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٨٩).

١٢ إعـادة المحاكمـة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ (يوسف:٥١).

أعـاد الملـك فتـح أوراق القضـية، وأحضر النسـوة وسـألهن عـن الواقعـة بنـاء على طلـب يوسـف، ورغم أنهـن كنَّ سـببًا في دخوله السـجن إلا أنه ظل كبيرًا في أعينهن وشـهدنَ له بالصلاح والاسـتقامة!! ولو كان أجابهم لطلبهم الأول لأظهروا له القبول والترحـاب في البدايـة، ولكـن صورتـه النقيـة كانت سـتنهار في مخيلتهم..

”فربمـا يراك النـاس متشـددًا لأنـك لم تـسايرهم فيمـا يريـدون، لكنـك تبقـى محترمًـا ومهابًـا في نـظرهم“

وربما يعترفون لك بذلك في يوم من الأيام، لأن تاريخك النقي وسيرتك الحسنة يساندانك وقت حلول الأزمات.

وهكذا كل شاب يصادق فتاة ويتخطى معها حدود الشرع، تحت زعم أنه يحبها، ولكن الحقيقة أنه لا يقدرها من داخله، هو فقط يريدها من أجل شهوته ومتعته أيًّا ما كانت درجتها، وإلا فالصورة التي يتمناها كل شاب عن زوجته وأم أولاده ألا تكون من هؤلاء اللواتي يصادقن الشباب، لأن من أراد الحب الحلال فإنه يدخل البيت من بابه، لا أن يتسوره مثل اللصوص، ليقضي غرضه ثم يفر هاربًا.

وهذا اللص رغم أنه معتدٍ، إلا أنه لا يطمئن في قرارة نفسه لهذا النوع من الفتيات، فطالما سمحت له أن يقفز من فوق السور اليوم، فلربما تسمح لغيره غدًا، بعد مر الأيام وكر السنين، **وكثير من الشباب العابث يفكر بهذه الطريقة،** فتجده يسير مع فتاة واثنين وأكثر تحت الزعم الكاذب بالحب والإعجاب، والوعد بالزواج بعد التخرج من الجامعة، أو بعد الالتحاق بالوظيفة، أو بعد أي وعد غامض في المستقبل.

فإذا ما انتوى الزواج بالفعل، **ترك هؤلاء اللواتي رضين بامتهان أنفسهن،** وبحث عن الدرة المصونة، الكامنة في بيتها، وممن لم يسبق لها تجربة في الحب، والصداقة وغيرها، ليكون هو

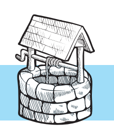
حبها الأول، **ولا يهمه أن يلقي بهذه الجثث التي خدعها وغشها على مذبح الحب**، والقصص في ذلك أكثر من أن تُحصى.

فالنصيحة للشباب:

أن يتقوا الله في محارم الناس، فما لا ترضاه على محارمك، لا يرتضيه الناس على محارمهم، فإذا كنت غير مؤهل للزواج، كأن تكون طالبًا صغير السن، أو مُعسرًا ليس معك مال، **فلا تقامر** بأحلام الفتيات، **ولا تعبث** في قلوبهن، **ولا تستغل** ضعف بعضهن ورقة مشاعرهن، أو خوف بعضهن من شبح العنوسة وغيرها، في أن تتلاعب بهذه العواطف من أجل إمتاع نفسك بما لا يحل لك، فالعلاقة المشروعة الوحيدة بين الرجل والمرأة - من غير المحارم - لم يجعل الله لها بابًا إلا الزواج، فإذا أردته فاطرق بابه، وإن عجزت عنه، فاصبر حتى يجعل الله لك فرجًا ومخرجًا.

والنصيحة للفتيات:

أن يكنَّ أكثر وعيًا ونضجًا، وحفاظًا على أنفسهن، **فلا يسمحن** لأنفسهن أن يكن حقل تجارب لكل شاب لاهٍ عابث، لا يراعي حرمة، وليست عنده مروءة تجعله يعامل بنات الناس ومحارمهم كما يحب أن يعاملوا بناته ومحارمه، **ولتحتفظ** كل



واحـدة منكن بكامل مشـاعرها وعواطفها لتغـرق بها من يطلب يدها بالطريق المشروع.

ففـي هـذه الحالات تُسـجل قصص حب أسـطورية بالفعل، ولكنهـا لا تجـد من يقوم عـلى نشرها وإذاعتها، لأنهـم لا يريدون لنا أن نعيش في طهر ونقاء، فلا تنزعجن من عدم وجود علاقات عاطفيـة، أو صداقات غرامية مع الشـباب، كما هو الحال مع كثير مـن الزميـلات والصديقات، لأنكـن تدخرن هذه المشـاعر حتى يحين وقتها المناسب، وفي موضعها المناسب.

مع العلم أن الـزواج رزق من الله، مكتوب ومقدر من الأزل، فالتي تتزوج وهي صغيرة ليس ذلك لأجل أنها جميلة، أو منفتحة، أو غيرها من الأسـباب الظاهرة فقط، ولكن لأجل أن هذا قدرها المحدد لها سـلفًا، وكذلك من تتأخـر في الزواج، فإن أجلها لم يحِن وقته بعد، مع إدراك أن ما عند الله لن يُنال بمعصية الله، وإنما يُنال بالالتزام والطاعة والدعاء، وغيرها من الأسباب المشروعة.



١٣ الاعتراف المذل والفضيحة المدوية:

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

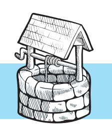
(يوسف:٥١).

نعوذ بالله من فضيحة المعصية، ها هي المرأة التي توعدت يوسف أن يكون صاغرًا، إذ بها تقف صاغرة أمام زوجها وأمام الملأ والمجتمع، لتعترف على نفسها بما تخجل منه أي امرأة، من أنها راودت يوسف عن نفسه، خشيت أن تُفتضح أمام زوجها فاتهمت يوسف بأنه أراد بها سوءًا، فإذا بها تفتضح أمامه وأمام غيره على مرأى ومسمع من الجميع، فالله عَزَّوَجَلَّ ستير يحب الستر.

"وكل منا له رصيده من الستر عند الله"

فإذا تمادى العبد في عصيانه وبارز الله بها، فإن الله يهتك ستره عليه ويفضحه، وهذه المرأة لم تقدر نعمة ستر الله عليها فكانت فضيحتها مدوية.

ولاحظ هنا أن اعترافها أمام الملك يختلف عن اعترافها أمام مجتمعها النسوي، فقد كانت تعد ذلك الاعتراف من مفاخرها،



ودليـلًا عـلى جمالها وأنوثتها، أمـا الاعتراف أمام الملـك فهو دلالة على فسادها وسوء طويتها، وخيانتها لزوجها.

واعلم أن الجزاء من جنس العمـل، والقلب المُعلق بالحرام كلما هـم أن يفارقه ويخرج منه عاد إليـه، ولهذا يكون جزاؤه في البرزخ وفي الآخرة هكذا، وفي بعض طرق حديث سمرة بن جندب الذي في صحيح البخاري أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**رأيت الليلة رجلين أتيانـي فأخرجانـي فانطلقت معهما فإذا بيـت مبني على مثل بناء التنـور أعلاه ضيق وأسـفله واسـع يوقد تحته نار فيه رجال ونسـاء عـراة فإذا أوقدت النـار ارتفعوا حتى يكادوا أن يخرجوا فإذا أخمدت رجعوا فيها**» فقلت: من هؤلاء؟ قال: «**هم الزناة**».

فتأمل مطابقـة هذا العذاب لحال قلوبهـم في الدنيا فإنهم كلما همـوا بالتوبة والإقلاع والخروج من تنور الشـهوة إلى فضاء التوبة أركسـوا فيـه وعادوا بعـد أن كادوا يخرجـون ولما كان الكفار في سـجن الكفر والشرك وضيقـه وكانوا كلما هموا بالخـروج منه إلى فضاء الإيمان وسعته وروحه رجعوا على أعقابهم كان عقوبتهم في

الآخرة كذلك قال الله تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ (السجدة:٢٠) وقال في موضع آخر: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ (الحج:٢٢).

فالكفر والمعاصي والفسوق كلها غموم، وكلما عزم العبد أن يخرج منه أبت عليه نفسه وشيطانه ومألفه فلا يزال في غم ذلك حتى يموت، فإن لم يخرج من غم ذلك في الدنيا بقي في غمه في البرزخ وفي القيامة، وإن خرج من غمه وضيقه هاهنا خرج منه هناك، فما حبس العبد عن الله في هذه الدار حَبَسَه عنه بعد الموت وكان معذبًا به هناك كما كان قلبه معذبًا به في الدنيا، فليس العشاق والفجرة والظلمة في لذة في هذه الدار وإنما هم يعذبون فيها وفي البرزخ وفي القيامة ولكن سكر الشهوة وموت القلب حال بينهم وبين الشعور بالألم فإذا حيل بينهم وبين ما يشتهون أحضرت نفوسهم الألم الشديد وصار يعمل فيها بعد الموت نظير ما يعمل الدود في لحومهم فالآلام تأكل أرواحهم غير أنها لا تفنى والدود يأكل جسومهم[١].

---

(١) روضة المحبين (ص٤٤٢).

والعجيب في أمر هذه المرأة أنها عندما وقفت أمام الملك قالت: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ (يوسف:٥١)، آلآن؟!! ولماذا الآن؟!! فقد كان الحـق ظاهـرًا لها منـذ اللحظـة الأولى، وعلى يد مَـن ارتضوه حكـمًا، فـإذا كان الحديث عن ظهور الحـق، فوقته لم يكن من الآن بـل منذ أن رأوا الآيات، ولكن الآن هو توقيت انتهاء الحين الذي أُجبروا عليه بعد افتضاح أمرهم أمام الملك.



١٤ عاقبة الخيانة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٢ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

(يوسف:٥٢-٥٣).

"خلاصة نهائية وصلت إليها المرأة بعد طول معاناة مع الكيد والمكر والرغبة في الخيانة، والمؤامرات والكذب والخداع، أن الله لا يهدي كيد الخائنين"

فيا ليت من جاءوا بعدها يتعظون بها، فيتجنبون السير في نفس طريقها، والأحمق من اتعظ بنفسه، والسعيد من وعظ بغيره.

كذلك انتبهت المرأة إلى حقيقة النفس البشرية، وما يمكن أن تفعل بصاحبها إذا أسلم لها زمامه، ولم يلجمها عما توسوس له به من رغبات ونزوات، لا يجني عاقبتها في الدنيا والآخرة إلا الضياع والضنك والخسران، حتى وإن شعر بلذة مؤقتة إلا أنها سرعان ما تزول، ويعقبها الألم الدائم، والحزن المستمر.

فكم أكبت فتنة العشق رؤوسًا على مناخرها في الجحيم وأسلمتهم إلى مقاساة العذاب الأليم وجرعتهم بين أطباق النار كؤوس الحميم وكم أخرجت من شاء الله من العلم والدين كخروج الشعرة من العجين وكم أزالت من نعمة وأحلت من نقمة وكم أنزلت من معقل عزه عزيزًا فإذا هو من الأذلين ووضعت من شريف رفيع القدر والمنصب فإذا هو في أسفل السافلين.

وكم كشفت من عورة وأحدثت من روعة وأعقبت من ألم وأحلت من ندم وكم أضرمت من نار حسرات أحرقت فيها الأكباد وأذهبت قدرًا كان للعبد عند الله وفي قلوب العباد وكم جلبت من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء فقل أن يفارقها زوال نعمة أو فجاءة نقمة أو تحويل عافية أو طروق بلية أو حدوث رزية فلو سألت النعم ما الذي أزالك؟ والنقم ما الذي أدالك؟ والهموم والأحزان ما الذي جلبك؟ والعافية ما الذي أبعدك وجَنبَّك؟ والستر ما الذي كشفك؟ والوجه ما الذي أذهب نورك وكسفك؟ والحياة ما الذي كدَّرك؟ وشمس الإيمان ما الذي كورك؟ وعزة النفس ما الذي أذلَّك؟

وبالهوان بعد الإكرام بدَّلك؟ لأجابتك بلسان الحال اعتبارا إن لم تجب بالمقال حوارًا[1].

العجيب أن ذكر العزيز وزوجته قد اختفى من سياق القصة تمامًا بعد انتهاء المحاكمة، وظهور البراءة، وقد أهمل القرآن شأنهما، فلم يظهرا بعد ذلك على مسرح الأحداث، فهل قام الملك بعزله؟ أم أنه لم يستطع أن يواجه المجتمع بعد ظهور فضيحته على الملأ بهذه الطريقة؟ الاحتمالات في ذلك لا تنتهي..

”ولكن الحقيقة الناصعة في ذلك أن عقوبة هذا النوع من الذنوب التي تتصل بالخيانة والأعراض وما أشبهها، عقوبة مؤلمة موجعة في الدنيا قبل الآخرة“

فالفضيحة والشقاء والخراب وزوال النعم من أظهر عقوباتها في الدنيا، فضلًا عن عقوبات الآخرة إن لم تطهرها التوبة قبل الموت.



(١) روضة المحبين (ص١٨٩)، بتصرف.



التواصل بين القارئ والكتاب

ما هي الدروس التي تعلمتها من هذا المشهد؟ وما هي المشاعر والانطباعات التي استقرت في وجدانك أثناء قراءتك للمشهد؟ وما هي النصائح التي يمكن أن تنصح بها غيرك تطبيقًا لما تعلمته، وإعمالًا لواجب النصيحة مع من تحب له الفوز والنجاة؟

☑ **الدروس التي تعلمتها هي:**

١- ....

٢- ....

٣- ....

☑ **المشاعر التي استقرت في وجدانك هي:**

١- ....

٢- ....

٣- ....

☑ **النصائح التي تحب أن تنصح بها غيرك هي:**

١- ....

٢- ....

٣- ....




المشهد الخامس
٥


يوســـف
من السجن إلى الوزارة





★ المشهد كما وصفه القرآن.

★ تفاصيل المشهد.

★ رسائل من قلب الحدث.



المشهد كما وصفه القرآن

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (يوسف:٥٤-٦٢).



تفاصيل المشهد



لما علم الملك مكانة يوسف وعلو قدره ومنزلته طلبه ليكون من أهل مشورته ومن خاصة رجاله، فطلب منه يوسف أن يوليه أمر خزائن البلاد، **وهو ما يوازي في زماننا وزارة التموين**، ومنذ ذلك الحين ويوسف يتبوأ هذه المنزلة العالية في دولة الملك، بعد أن نجاه الله من أعاصير الفتن المتتابعة عليه منذ أن ألقاه إخوته في البئر وحيدًا شريدًا عريانًا جائعًا.

مرت أيام البلاء على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصبر عليها صبرًا جميلًا إلى أن صار عزيز البلاد، وفي نفس اللحظة يأتي إخوته إلى مصر يطلبون المعونة والمساعدة وهو على كرسي الوزارة، وبيان ذلك «أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لما باشر الوزارة بمصر ومضت السبع السنين المخصبة، ثم تلتها السبع السنين المجدبة، وعم القحط بلاد مصر بكمالها، ووصل إلى بلاد كنعان وهي التي فيها يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وأولاده، وحينئذ احتاط يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ للناس في غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، وورد عليه

الناس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطى الرجل أكثر من حمل بعير في السنة، وكان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لا يُشبع نفسه، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار، حتى يتكفا الناس بها في أيديهم مدة السبع سنين، وكان رحمة من الله على أهل مصر[(١)].

المهم أن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عرفهم، في حين أنهم لم يعرفوه لتغير شكله ولعدم توقعهم أن يكون في هذه المنزلة فقد باعوه رقيقًا منذ أن كان صبيًّا، وذكر عدد من المفسرين أنه شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ فقالوا: أيها العزيز إنا قدمنا للميرة، قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله. قال: فمن أين أنتم؟ قالوا من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبي الله. قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم كنا اثنى عشر، فذهب أصغرنا، هلك في البرية وكان أحبنا إلى أبيه، وبقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه، فأمر بإنزالهم وإكرامهم[(٢)].

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤٠).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤١).

ثـم طلب منهم يوسـف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يحـضروا معهم أخاهم في المـرة القادمـة، ورهبهم من أنهـم إن لم يأتوا به، فليـس بينه وبينهم تعامـل بعـد ذلـك، وقد وعـدوه بالمحاولـة مع أبيهـم بخصوص هـذا الأمـر، وكمزيد من ترغيبهـم في العودة إليه مـرة أخرى، رد إليهم البضاعة التي أتوا بها ليسـتبدلوا بهـا الطعام، فرجع الإخوة بالبضاعة والطعام معًا.





رسائل من قلب الحدث

في هذا الجزء من القصة نجد أن..

"إقرار العدل، وعودة الحقوق إلى أصحابها، وإسناد الأمر إلى أهله، كانت أهم ملامح خطة الإصلاح التي انتهجها الملك في سياسته الجديدة"

ويبدو أن معرفته بتأويل الرؤيا من يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، جعلته يُفيق من غفلته التي كانت تخدره عن ما يدور في مملكته، ولرب ضارة نافعة، فمعرفة الملك بأنه كان قاب قوسين أو أدنى من مجاعة طاحنة، لربما أطاحت بملكه ومزقته، جعلته يراجع حساباته..

"فثورة البطون الجائعة تأكل أمامها الأخضر واليابس، والسلطة مهما كانت غاشمة، فإنها لا تقوى على مواجهة طوفان الجوعى والمحرومين"

وفيما يلي شيء من الحكم والعبر والدلالات التي تناولها هذا المشهد:



١ اجتماع في أروقة القصر:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾

(يوسف:٥٤)

اجتمع الملك مع يوسف بعد أن عرف له قدره، ورد إليه اعتباره، وعرض عليه أن يشارك في الوزارة فهو ذو الكفاءة والأمانة، «وهذه صيغة تولية جامعة لكل ما يحتاج إليه ولي الأمر من الخصال، لأن المكانة تقتضي العلم والقدرة إذ بالعلم يتمكن من معرفة الخير والقصد إليه، وبالقدرة يستطيع فعل ما يبدو له من الخير والأمانة تستدعي الحكمة والعدالة، إذ بالحكمة يوثر الأفعال الصالحة ويترك الشهوات الباطلة، وبالعدالة يوصل الحقوق إلى أهلها. وهذا التنويه بشأنه والثناء عليه تعريض بأنه يريد الاستعانة به في أمور مملكته وبأن يقترح عليه ما يرجو من خير، فلذلك أجابه بقوله: اجعلني على خزائن الأرض»[١].

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٨).

وقد كان امتناع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عن إجابة الداعي بالخروج من السجن في المرة الأولى سببًا في مزيد من العلو والرفعة عند الملك، **ولنتأمل الفرق بين الأمر الملكي في المرتين، ففي المرة الأولى** اكتفى الملك بقوله: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾، وكأن هذا الأمر منه مجرد تعاطف مع شخص مظلوم قدم للنظام مساعدة، فأراد مكافأته على ذلك، **أما في المرة الثانية**، فقال الملك: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾، أي أجعله من خاصة رجالي وأهل مشورتي.

في المرة الأولى كان غاية ما سيفعلونه معه مجرد استقبال في قصر الملك، واعتذار عما سبق، وربما يعطونه تعويضًا أو مكافأة، ثم ينتهي أمره بعد ذلك، **أما في المرة الثانية** فقد استقبله الملك استقبالًا خاصًّا، وجلس معه على انفراد، كأنما يجلس مع أحد مستشاريه أو كبار قادته.

أين هذا النمط الراقي ممن يمرغون كرامتهم تحت أقدام الحكام طمعًا في نظرة رضا، أو كلمة ثناء؟، فهذا الموقف يعلمنا أن عزة النفس، وكرامة الأصل تدر من الربح -حتى المادي- أضعاف ما يدره التمرغ والتزلف والانحناء! ويا ليت الحكام يدركون حقيقة

المتزلفين والمتصنعين من طالبي الرياسة ومحبي الشهرة، فهولاء لا يمكن أن يكونوا أمناء ناصحين؛ **لأن رغبتهم في التسلق والظهور تجعلهم يقبلون بمرتبة ماسحي الجوخ**، ومن يقبل على نفسه ذلك فلا يُتوقع منه خير، ولا يُرجي من ورائه منفعة.



٢ اختيار الحقيبة الوزارية:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف:٥٥).

يظهر -والله أعلم- أن الملك عرض على يوسف الوزارة، فاختار من الوزارات ما يكون مختصًّا بأقوات الناس وغلاتهم، فهذا هو الملف الذي يتابعه منذ تفجر أزمة رؤيا الملك، «واقتراح يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذلك إعداد لنفسه للقيام بمصالح الأمة على سنة أهل الفضل والكمال من ارتياح نفوسهم للعمل في المصالح، ولذلك لم يسأل مالًا لنفسه ولا عرضًا من متاع الدنيا، ولكنه سأل أن يوليه خزائن المملكة ليحفظ الأموال ويعدل في توزيعها ويرفق بالأمة في جمعها وإبلاغها لمحالها»[١].

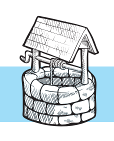
وذكر يوسف مؤهلات نفسه التي جعلته يختار هذه الوزارة بالذات، وهو أن الله مَنَّ عليه بالعلم والحفظ، «أي: حفيظ للذي أتولاه، فلا يضيع منه شيء في غير محله، وضابط للداخل والخارج، عليم بكيفية التدبير والإعطاء والمنع، والتصرف في جميع أنواع

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٨).

التصرفات، وليس ذلك حرصًا من يوسف على الولاية، وإنما هو رغبة منه في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاءة والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه، فلذلك طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، فجعله الملك على خزائن الأرض وولاه إياها»[1].

وهذه الآية أصل لوجوب عرض المرء نفسه لولاية عمل من أمور الأمة إذا علم أنه لا يصلح له غيره لأن ذلك من النصح للأمة، وخاصة إذا لم يكن ممن يتهم على إيثار منفعة نفسه على مصلحة الأمة. وقد علم يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه أفضل الناس هنالك لأنه كان المؤمن الوحيد في ذلك القطر، فهو لإيمانه بالله يبث أصول الفضائل التي تقتضيها شريعة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ. فلا يعارض هذا ما جاء في «صحيح مسلم» عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال لي رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها**»، لأن عبد الرحمن ابن سمرة لم يكن منفردًا بالفضل من بين أمثاله ولا راجحًا على جميعهم[2].

(١) تفسير السعدي (ص ٤٠٠).
(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٩).



وانظر كيف تعامل يوسف مع هذه الحفاوة البالغة من الملك إنه لم يسجد شكرًا كما يسجد رجال الحاشية المتملقون. ولم يقل له: عشت يا مولاي وأنا عبدك الخاضع أو خادمك الأمين، كلا إنما طالب بما يعتقد أنه قادر على أن ينهض به من الأعباء في الأزمة القادمة التي أوّل بها رؤيا الملك، خيرًا مما ينهض بها أحد في البلاد وبما يعتقد أنه سيصون به أرواحًا من الموت وبلادًا من الخراب، ومجتمعًا من الفتنة- فتنة الجوع- فكان قويًّا في إدراكه لحاجة الموقف إلى خبرته وكفايته وأمانته، قُوَّتَه في الاحتفاظ بكرامته وإبائه.

فلم يكن يوسف يطلب لشخصه وهو يرى إقبال الملك عليه فيطلب أن يجعله على خزائن الأرض.. إنما كان حصيفًا في اختيار اللحظة التي يستجاب له فيها لينهض بالواجب المرهق الثقيل ذي التبعة الضخمة في أشد أوقات الأزمة وليكون مسؤولًا عن إطعام شعب كامل وشعوب كذلك تجاوره طوال سبع سنوات، لا زرع فيها ولا ضرع. فليس هذا غنمًا يطلبه يوسف لنفسه. فإن التكفل بإطعام شعب جائع سبع سنوات متوالية لا يقول أحد إنه غنيمة. إنما هي تبعة يهرب منها الرجال، لأنها قد تكلفهم رؤوسهم، والجوع كافر، وقد تمزق الجماهير الجائعة أجسادهم في لحظات الكفر والجنون[1].

---

(١) تفسير الظلال (٤/ ٢٠٠٥)، بتصرف.

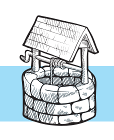
٣ تسلم مهام الوزارة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف:٥٦)

البلاء طريق للتمكين، حقيقة أخرى ضُمَّها إلى أخواتها واعمل بها وثِقْ في نتائجها، تكنْ لك سراجًا منيرًا في دروب الحياة وكهوفها، فإنك إذا آمنت بهذه القواعد وطبقتها صرت من أسعد الناس في هذا الكون، فالله عَزَّوَجَلَّ يُمَكِّن للصالحين إذا حَسُنَت نياتهم..

> **ولما سُئِل الشافعي أيهما أفضل أيُبتلى المرء أم يُمكَّن؟ قال: (لا يُمكَّن حتى يبتلى)**

فليس هناك تمكين يأتي هكذا من الهواء، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما مُكِن له في المدينة حتى ابتلي في مكة، فكم أوذي بالحصار والجوع والتعذيب وقتل أصحابه حتى مكَّن الله لهم، ويوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خير مثال على ذلك، فمتى مُكِن؟ مُكن بعدما ابتلي بالجب وبالسجن وبالذل وبالعبودية، ثم لما صبر على كل هذه الابتلاءات



جاءه التمكين. وهذا ما حصل لأنبياء الله وأوليائه في كل القصص القرآني كما ذكر الله عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في قصته مع فرعون، قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ (الأعراف:١٣٧).

إلى هنا تنتهي رحلة يوسف مع الابتلاء بالضراء، وتبدأ رحلة جديدة مع الابتلاء بالسراء، فها هو الآن صار أحد أبرز المسئولين في الدولة، وتقلد فيها أرفع الوظائف الإدارية والتنفيذية، وأصبح من الممكنين في الأرض، فحوله الحراس والخدم، وفي يديه الأموال والأرزاق، ووزارته التي يتولى شئونها تعد من الوزارات السيادية في ذلك الوقت، خصوصًا مع فترة المجاعة التي عانت منها البلاد في ذلك الوقت.

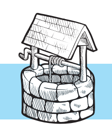
هذه الحياة الجديدة تحتاج إلى إعداد من نوع خاص حتى لا تصبح بابًا آخر من أبواب البلاء والفتنة، وإلا..

"فقد رأينا في زماننا من استطاع أن يصمد في وجه السجون ولكنه انهار أمام بريق القصور"

ومن تغلب على فترات التضييق والمحن، ولم يقاوم إغراءات الملك والسلطان، ورأينا من ذاق طعم الظلم في السجون والمعتقلات، حتى إذا تبدلت الأحوال وصار السجان مسجونًا، والسجين سلطانًا، تناسى أنه تجرع مرارة الظلم لسنوات، فمارس الظلم مع غيره كما كان يُمارس معه، وبالتالي فليس كل من صبر على الضراء، يستطيع أن يصبر على السراء..

"والإنسان الحصيف هو من يربي نفسه على مقاومة كل أنواع البلاء حتى لا تكون فتنته من باب لا يُتوقع أن تأتيه منه الفتنة"





٤ المقابلة الأولى والطلب الغامض:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٥٩ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ٦٠ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ (يوسف:٥٨-٦١)

يتضح من السياق حسن إدارة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ للأزمة الاقتصادية التي ألمت ببلاده حتى عصم الله به الوطن من انهيار ومجاعة كانت وشيكة الحدوث، ومن علامات الخير الذي تم على يد يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن ورد إليه من خارج مصر من يرغبون في الميرة والتزود بالطعام، حيث يبدو أن المجاعة قد امتدت رقعتها، وازداد عدد المتضررين منها، ويبدو أنه شاع في هذه البلاد المجاورة سيرة يوسف الصالحة، ومعاملته الطيبة، وعطاؤه الكريم، فجاء إخوة يوسف من جملة من أتى إلى بلاد مصر فرارًا من القحط وطلبًا للقوت.

ولم يكن ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يوفقه الله في هذه الأزمة إلا بعد أن يحصل أسباب التغلب عليها..

1. فالتوبة واللجوء إلى الله أحد أهم أسباب رفع البلاء والنجاة من المحن.

2. وبعدها يأتي دور خطة التقشف العادلة التي يستوي فيها جميع الطبقات والفئات بلا محاباة ولا تمييز، وقبلها وبعدها لابد من:

3. منع وتحجيم كل صور الترف والزينة والأبهة، وإهدار الأموال العامة.

4. مع الوقوف بحزم مع قضايا الغش والسرقة والرشوة والمحسوبية، فضلًا عن التعاملات المالية المحرمة مثل التعامل بالربا..

"هذه الملامح لاغني عنها في أي خطة إصلاحية تهدف إلى إنقاذ الوطن من الغلاء والوباء، والفقر والعوز والفاقة"

وقف هؤلاء الإخوة أمام يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وبدا أمام ناظره شريط من الذكريات المؤلمة، هل يتذكر المعاملة الخشنة، والقسوة



اللامتناهيـة، أم يتذكر ضربهم إياه وتعنيفهم له، أم يتذكر إلقاءه في البئر المَخُوف، أم يتذكر بيعهم له رقيقًا للتجار..

"لو لم تكن لدى يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نفسية الإحسان، لفتك بهم وانتقم منهم، وهو القادر على ذلك، وهم البؤساء المحتاجون"

ولكنـه عـلى العكس تمامًـا أحسـن الاسـتقبال وأوفى الكيل، وأنزلهم المنزل الحسـن، وتركهم يأنسـون إليه، واستدرجهم حتى ذكـروا له مَنْ هُـمْ على وجه التفصيـل، وأن لهم أخًـا أصغر منهم مـن أبيهم لم يحضر معهم لأن أباه يحبه ولا يطيق فراقه، ولكنه أراد أن يمتـد هـذا الخير والنعيم لباقي أفراد أسرتـه، فأعد لذلك خطة حكيمة، تكون سـببًا لِلَمِّ شـمل الأسرة التي تعـاني من ألم الفراق والتشتت منذ سنين.

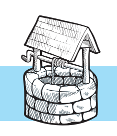


٥ حيلـة من أجل البر:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (يوسف:٥٩-٦٢).

اشتاق يوسف لرؤية أخيه بنيامين، وصارح إخوته -الذين لم يتعرفوا عليه بعد- أنه يريد هذا الأخ لأبيهم الذي من المؤكد أن خبره جاء على ألسنتهم أثناء حوار يوسف معهم، ومن باب التأكيد على رغبته في تحقيق هذا الطلب، هددهم بوقف التعامل معهم إذا لم يحققوا له طلبه، ومن جانبهم وعدوه بأنهم سوف يتفاوضون مع أبيهم بخصوص هذا الشأن.

وقد احتال يوسف حيلة لطيفة من أجل ملاقاة أخيه، فأعاد إليهم بضاعتهم التي جاءوا بها،وقد علل يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ما أمر به من جعل البضاعة في رحالهم بقوله: لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا



إلى أهلهـم فجعل علة جعل البضاعـة في الرحال هي معرفتهم لها إذا انقلبـوا إلى أهلهم، وذلك لأنهم لا يعلمون برد البضاعة إليهم إلا عنـد تفريغ الأوعية التي جعلوا فيها الطعام، وهم لا يفرغونها إلا عنـد الوصول إلى أهلهم، ثم علـل معرفتهم للبضاعة المردودة إليهم المجعولة في رحالهم بقوله: لعلهم يرجعون، فإنهم إذا عرفوا ذلـك وعلمـوا أنهم أخذوا الطعام بلا ثمـن، وأن ما دفعوه عوضا عنـه قد رجع إليهم، وتفضل به من وصلوا إليه عليهم نشـطوا إلى العود إليه، ولا سيما مع ما هم فيه من الجدب الشديد والحاجة إلى الطعـام وعدم وجوده لديهم، فـإن ذلك من أعظم ما يدعوهم إلى الرجوع، وبهذا يظهر أن يوسـف عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يردَّ البضاعة إليهم إلا لهذا المقصد، وهو رجوعهم إليه[١].



(١) فتح القدير (٣/ ٤٦).

التواصل بين القارئ والكتاب

ما هي الدروس التي تعلمتها من هذا المشهد؟ وما هي المشاعر والانطباعات التي استقرت في وجدانك أثناء قراءتك للمشهد؟ وما هي النصائح التي يمكن أن تنصح بها غيرك تطبيقًا لما تعلمته، وإعمالًا لواجب النصيحة مع من تحب له الفوز والنجاة؟

☑ الدروس التي تعلمتها هي:

١- ....

٢- ....

٣- ....

☑ المشاعر التي استقرت في وجدانك هي:

١- ....

٢- ....

٣- ....

☑ النصائح التي تحب أن تنصح بها غيرك هي:

١- ....

٢- ....

٣- ....


المشهد السادس
٦


إخـــوة يوســـف
والمهمــة الصعبــة





★ المشهد كما وصفه القرآن.

★ تفاصيل المشهد.

★ رسائل من قلب الحدث.

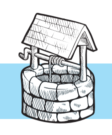
١ الطلب المريب.

٢ الآلام تتجدد.

٣ الميثاق الغليظ.

٤ الحذر لا يردّ القدر.





المشهد كما وصفه القرآن

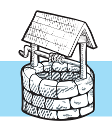
قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (يوسف:٦٣-٦٨) .

تفاصيل المشهد

رجع الإخوة إلى أبيهم، ونقلوا إليه طلب يوسف وأنه سوف يمنع عنهم الكيل في المرة القادمة إن لم يأخذوا معهم أخاهم بنيامين، وقد تعهدوا بحفظه ورعايته، ولكن حرارة شوق أبيهم ليوسف لم تبرد بعد، وقبح جريمتهم ما زال حاضرًا في ذهنه، خصوصًا أنهم سبق وأن تعهدوا له بحفظ يوسف ومع ذلك رجعوا بدونه.

ولكن إخوة يوسف ساقوا عددًا من المبررات لإقناع أبيهم بسفر بنيامين معهم،

- **أولها:** أن بضاعتهم ردت إليهم كما هي، ولم يأخذها منهم العزيز.
- **ثانيها:** أن الميرة قد تنقطع عنهم إذا لم يذهبوا بأخيهم.
- **ثالثها:** أنهم سيزدادون كيل بعير وذلك أن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يعطي كل رجل حمل بعير.
- **وأخيرًا:** أنهم سيرعونه ويحفظونه، لذا وافق يعقوب على طلبهم رغم كراهته لذلك وقد وصاهم أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد، وأن يدخلوا من أبواب متفرقة، ومع أن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه إلا أنه من باب الأخذ بالأسباب لأن يعقوب عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ خاف عليهم من العين والحسد.





رسائل من قلب الحدث

في هـذا المقطع مـن القصة، يدور حوار تفـاوضي بين الإخوة وأبيهـم حول بنيامين، ومعلـوم أن مجرد طرح الفكرة على يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، يجـتر عليه مسلسـل الآلام المتجدد، فحزنه على يوسـف لم يغـب عنـه طول هذه الفـترة، **ويبرز في هذا الحـوار الفرق الهائل بين نفسـية يعقوب** الهادئة المستوثقة بالله، رغم أنه المجروح المتألم، **وبين نفسـية أبنائه** التي تجمع بين القسـوة والأنانية والتوتر، مع أن جريمتهـم السـابقة في حق يوسـف مـن المفـترض أن تدفعهم لشيء مـن الخجل والحياء وهـم يحاورون أباهـم، خصوصًا وهم يكررون تجربة تبدو في ظاهرها متشـابهة بدرجة كبيرة مع تجربتهم مع يوسـف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وفيما يلي شيء من الحكم والعبر والدلالات التي تناولها هذا المشهد:



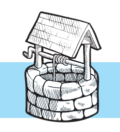


١ الطلب المريب:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (يوسف:٦٣).

رجع إخوة يوسف إلى أبيهم، بالطعام الذي يحتاجون إليه، ومع ذلك لم يذكروا كلمة ثناء واحدة على الوزير الذي استقبلهم، وتبسط في الحديث إليهم، وأكرمهم، وأعطاهم حاجتهم، وهذه الشخصية التي تتسم بالجحود ونكران الجميل لا يُتوقع من ورائها خير، وإلا فلماذا يُصدِّرون الكلام بما يتعلق بمنع الكيل في المستقبل إذا لم يأخذوا معهم أخاهم، وهم يعرفون أن هذه القضية لها حساسية خاصة عند يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

ماذا كان يضيرهم لو أنهم أنصفوا من أنفسهم، وصدقوا في نقل الحقيقة كاملة، وطمأنوا أباهم بما وجدوه من معاملة طيبة، وكيل كاف، ثم يشرعون بعد ذلك في إقناع أبيهم بطريقة ودودة هادئة إلى أن تلين قناته لهم، لكن أن تُختصر رحلتهم في جلب



الميرة إلى جملة ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾، رغم أنها تتعلق بالمستقبل لا بالحاضر الذي هم فيه، ثم يردفون ذلك بالطلب المرعب المخوف ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾، فهذه الطريقة لم يحالفها التوفيق في العرض، ولم تعرف للأدب ولا للمعروف طريقًا.



٢ الآلام تتجدد:

قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ (يوسف:٦٤).

فيعقوب لا يأمنهم على بنيامين لأن له معهم تجربة سابقة، ولم يجِدَّ جديدٌ في أخلاقهم وسلوكياتهم يجعله يثق فيهم أو يعاملهم معاملة مختلفة، بل لقد كرروا نفس الألفاظ ونفس التعهدات التي رددوها مع يوسف، فقد قالوا له في يوسف: وإنا له لحافظون، كما قالوا هنا: وإنا له لحافظون ثم خانوه في يوسف، فهو إن صدقهم في إدعائهم حفظهم لبنيامين، فقد صدقهم في يوسف أيضًا ثم خانوه، وماذا عساه أن يفعل أمام عصبة تاريخها لا يساندها بل يقف شاهدًا عليها لا لها.

وقد جدد أبناؤه بطلبهم هذا مرارة ما فعلوه مع يوسف من قبل، ورغم أنه لا يوجد ما يشجع يعقوب على تصديقهم وإرسال ابنه معهم، إلا أنه اعتمد على..

"إحدى قواعد الطمأنينة والسكون في هذه الحياة، وهي أن هناك ربا يحفظنا ويقينا شر أنفسنا وشر كل ذى شر، وشر شياطين الإنس والجن"

فلما وكل يعقوب حفظ بنيامين إلى الله سبحانه حفظه وأرجعه إليه، ولما قال في يوسف: وأخاف أن يأكله الذئب -رغم أنه خوف طبعي- وقع له من الامتحان ما وقع، ***فالقلوب لا يجوز أن تتعلق إلا بالله، ولا ينبغي أن تلتفت عن ربها طرفة عين.***



٣ الميثاق الغليظ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ (يوسف:٦٦).

بعد هدوء إخوة يوسف من توترهم واندفاعهم، وبعد أن وجدوا بضاعتهم عادت إليهم كمزيد من الفضل والإحسان من الوزير، شرعوا يخاطبون أباهم خطابًا يغلب عليه العقل والهدوء، فعددوا له مميزات الاستجابة لطلب الوزير بملاقاة بنيامين، وكذلك طمأنوه على قدرتهم وتعهدهم بحفظ بنيامين، وقد لخص القرآن هذا الحوار في قوله: ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ۖ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ (يوسف:٦٥).

أمام هذا المنطق لم يجد يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بدًّا من قبول الأمر، ولكنه أخذ عليهم ميثاق الله وعهده، ومعنى ذلك أن يجعلوا الله شاهدًا عليهم فيما وعدوا به أباهم بأن يحلفوا بالله فتصير شهادة الله

عليهم كتوثيق صادر من الله تعالى على هذه القضية، وأخذ يعقوب عليهم العهد بأن يأتوه ببنيامين إلا أن يُغلبوا عليه أو يَهلكوا دونه، فيكون ذلك عذرا خارجا عن نطاق قدرتهم وتصرفهم، فلما أعطوه ما طلبه منهم من القسم، وافق على ذهابه معهم، وهذا التعهد بالقسم لم يفعله يعقوب معهم في يوسف، ولكنه زاده هذه المرة، كمزيد من الحرص والتأمين له.



٤ الحذر لا يردّ القدر:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (يوسف:٦٧-٦٨).

أمر يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أبناءه بدخول المدينة من عدة أبواب، وألا يدخلوا معًا من نفس الباب، وذلك إشفاقًا عليهم، إما من إصابة العين، وإما من تعرض عدوّ، أو ببعض ما يخوّفه عليهم، وربما، «نهاهم أن يدخلوها من باب واحد خشية أن يسترعي عددهم أبصار أهل المدينة وحراسها وأزياؤهم أزياء الغرباء عن أهل المدينة أن يوجسوا منهم خيفة من تجسس أو سرقة فربما سجنوهم أو رصدوا الأعين إليهم، فيكون ذلك ضررًا لهم وحائلًا دون سرعة وصولهم إلى يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ودون قضاء حاجتهم.

ولما كان شأن إقامة الحراس والأرصاد أن تكون على أبواب المدينة اقتصر على تحذيرهم من الدخول من باب واحد دون أن يحذرهم من المشي في سكة واحدة من سكك المدينة، ووثق بأنهم عارفون بسكك المدينة فلم يخش ضلالهم فيها، وعلم أن (بنيامين) يكون في صحبة أحد إخوته لئلا يضل في المدينة»[١].

وهو عَلَيْهِ السَّلَامُ معترف أن فعله ذلك، وأمره إياهم بما أمرهم به من ذلك، لا يغني عنهم من الله شيئًا يريده عَزَّوَجَلَّ بهم، «إنما أراد بهذا تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة تأدبًا مع واضع الأسباب ومقدر الألطاف في رعاية الحالين، لأنا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله في الأعمال فعلينا أن نتعرفها بعلاماتها ولا يكون ذلك إلا بالسعي لها. ذلك أنَّ شأن الأسباب أن تحصل عندها مسبباتها. وقد يتخلف ذلك بمعارضة أسباب أخرى مضادة لتلك الأسباب حاصلة في وقت واحد، أو لكون السبب الواحد قد يكون سببًا لأشياء متضادة باعتبارات فيخطئ تعاطي السبب في مصادفة المسبب المقصود، ولولا نظام الأسباب ومراعاتها لصار المجتمع البشري هملًا وهمجًا[٢].

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢١).

فلما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم سلِموا مما كان يخافه عليهم. وما كان دخولهم من حيث أمرهم يغني عنهم من الله من شيء لو قدر الله أن يُحاط بهم، ولكن الله أمر يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأخذ أسباب الاحتياط والنصيحة مع علمه بأن ذلك لا يغني عنهم من الله من شيء قدره لهم، فإن مراد الله تعالى خفيٌّ عن الناس، وقد أمر بسلوك الأسباب المعتادة.

وعلم يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذلك، ولكن أكثر الناس لا يعلمون تطلُّبَ الأمرين فيهملون أحدهما، فمنهم من يهمل معرفة أن الأسباب الظاهرية لا تدفع أمرا قدره الله وعلم أنه واقع، ومنهم من يهمل الأسباب وهو لا يعلم أن الله أراد في بعض الأحوال عدم تأثيرها(١).

ويبدو والله أعلم، أن تجربة يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع الحسد وتضرره منه -حيث كان الحسد هو أصل المشكلة التي وقعت ليوسف- جعلته أكثر حرصًا وتنبهًا لذلك، وهذا من الأمور التي يجمل أن يُنتبه إليها، وهي أيضًا أحد طرق الأخذ بالأسباب.



---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٥).



التواصل بين القارئ والكتاب

ما هي الدروس التي تعلمتها من هذا المشهد؟ وما هي المشاعر والانطباعات التي استقرت في وجدانك أثناء قراءتك للمشهد؟ وما هي النصائح التي يمكن أن تنصح بها غيرك تطبيقًا لما تعلمته، وإعمالًا لواجب النصيحة مع من تحب له الفوز والنجاة؟

☑ **الدروس التي تعلمتها هي:**

١- ....

٢- ....

٣- ....

☑ **المشاعر التي استقرت في وجدانك هي:**

١- ....

٢- ....

٣- ....

☑ **النصائح التي تحب أن تنصح بها غيرك هي:**

١- ....

٢- ....

٣- ....




المشهد السابع
٧


لقـــاء الأخويــن




محتويات
المشهد



المشهد كما وصفه القرآن

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ
قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾
فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ
مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم
مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ
حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا
لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن
كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ
كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ
ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ
لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن
نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ
فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ
يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ
﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا
مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن



نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ (يوسف:٦٩-٨٠).



تفاصيل المشهد

نجحت حيلة يوسـف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وعـاد الإخوة إليه مـرة أخرى ومعهم أخوه الحبيب بنيامين، وقد ضمه يوسـف إليه وكشـف له عـن حقيقة شـخصيته وطمأنه بأنه سـيحتال لكي يبقيـه معه لئلا يرتـاع مـن هذه الحيلة، ولكـي لا يخبر إخوته بشيء مـن هذا، وقد أمر يوسـف أن يضعوا شـيئًا من مقتنيات الملك في حقيبة بنيامين، ومـا أن همَّ الإخوة بالرحيل حتى سـمعوا مناديًا يتهمهم بالسرقة حيث إنهم فقدوا الإناء الذي يشرب فيه الملك.

ولما كان إخوة يوسـف يعرفون أنهم لم يسرقوا شيئًا على الحقيقة فقد نفوا التهمة عن أنفسـهم نفيًا جازمًا بل حكموا على أنفسـهم بنص شريعة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهي أن السارق يُدْفَع إلى المسروق منه ليتملكه، هنا بدأ العمال في تفتيش حقائبهم وإمعانًا في التورية، كانـت حقيبة بنيامين آخرهم تفتيشًـا، ويؤكـد القرآن في هذا المقام بقولـه: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ (يوسف:٧٦) وهـذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

وجد الإخوة أنفسهم في ورطة أمام الملك فأحبوا أن ينزهوا أنفسهم كـ«عصبة» من هذا الأمر، فعرضوا بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقالوا إنه كما سرق بنيامين الآن فإن يوسف سبق له أن سرق أيضًا، وقد أعرض القرآن عن ذكر تفاصيل هذا الأمر، هل هو منهم محض كذب وافتراء على يوسف أم أن له أصلًا وهم تلاعبوا في نقل القصة، وقد أورد بعض المفسرين عددًا من الروايات المنقولة عن كتب أهل الكتاب، منها ما نقله ابن جرير في تفسيره[1]، والله أعلم بصحتها.

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان أول ما دخل على يوسف من البلاء فيما بلغني أن عمته ابنة إسحاق، وكانت أكبر ولد إسحاق، وكانت عندها منطقة إسحاق، وكانوا يتوارثونها بالكبر، فكان من اختباها ممن وليها كان له سلما لا ينازع فيه، يصنع فيه ما يشاء، وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته عمته، وكان لها به وله، فلم تحب أحدًا حبها إياه حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات، تاقت إليه نفس يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأتاها فقال: يا أخية سلمى إلي يوسف، فو الله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة. قالت: فو الله ما أنا بتاركته، ثم قالت: فدعه عندي أياما أنظر إليه، وأسكن عنه لعل ذلك يسليني عنه، أو كما قالت فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه، ثم قالت: فقدت منطقة إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ، فانظروا من أخذها ومن أصابها؟ فالتمست، ثم قالت: اكشفوا أهل البيت فكشفوهم، فوجدوها مع يوسف، فقالت: والله إنه لي لسلم، أصنع فيه ما شئت، فأتاه يعقوب، فأخبرته الخبر، فقال لها: أنت وذلك، إن كان فعل ذلك فهو سلم لك، ما أستطيع غير ذلك، فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت». انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٢٧٤).

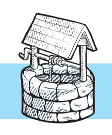
تمالك يوسف غضبه وغلب عليه حلمه، إذ أن جهلهم بحقيقة من يكلمهم أعطى لهم الحرية في أن يتهموا يوسف كما يشاؤون، ولم يرد عليهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، إنما قال في سره دون أن يُسمعهم أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون أي بما تذكرونه بخصوص السرقة.

أفاق إخوة يوسف من صدمة سرقة أخيهم، وتذكروا عهدهم لأبيهم وقَسَمَهُم له، فتفاوضوا مع يوسف أن يستبدل ببنيامين أحدَهم حرصًا على أبيهم الكبير الذي لن يتحمل للمرة الثانية فاجعة فقد ابنه، وقد كان بنيامين في المنزلة يلي يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ رفض هذا العرض من جانبهم.

وهنا يبدو أن تغيرًا ما حصل لإخوة يوسف حتى أصبحت قلوبهم أقل قسوة، وأصبح حفظهم للأمانة وللوعد أشد احترامًا، فقد نهض أكبرهم سنًّا وذكّرهم بالعهد الذي أخذوه على أنفسهم أمام أبيهم، وذكّرهم بفعلتهم السابقة مع يوسف، فكيف يواجهون أباهم بعد ذلك. وقد ألزم هذا الأخ نفسه بالبقاء في مصر وعدم الرحيل معهم حتى يأذن له أبوه في الرجوع أو يُظهر الله حقيقة

الأمر، وقد طلب منهم أن يخبروا أباهم بحقيقة ما حدث، وأنه لو أراد التحقق من صدق ما يقولونه فليسأل أهل القرية التي حدثت فيها الواقعة أو فليسأل القافلة التي كانوا فيها ليتأكد من صدق ما يقولونه.







رسائل من قلب الحدث

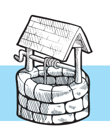
هذا المشـهد من القصة يعد مـن أروع فصول القصة، لما يحيط به من المشاعر الإنسانية الجياشة، ولأنه يدور بين يوسف وإخوته، مع جهل منهم بحقيقة من يكلمهم، **فمشـاعر الأخوّة الصادقة** بين يوسـف وبنيامين تبعث على التفاؤل والأمل بعد كل هذه السـنين من الفراق والبعد، **ومشـاعر الصدمة** التي بدت على إخوة يوسف من سرقة أخيهم، والأمر على ما رأوه بأعينهم، فلا مجال فيه للشك والريبة، ثم **مشاعر الحيرة والقلق والاضطراب** التي بدت عليهم خوفًا من مواجهة أبيهم للمرة الثانية وهم في موضع التهمة، ثم **مشاعر ما تبقى في قلوبهم من الضغينة والحقد على يوسف**، والتي لم يتمالكوا أنفسـهم فأظهروهـا أمام الوزيـر الغريب عنهم، مـع أنه ليس من مصلحتهم أن يعرف أن لهم أخًا اتهم بالسرقة قبل ذلك.

ثم مشـاعر الأدب الرفيع من يوسـف الذي سـمع سبَّهم إياه بأُذنـه، وكان قادرًا على الانتقام، بل على الأقل كان قادرًا على الرد الموجـع ولكنـه لم يفعل، وأخيرًا **مشـاعر الأخ الأكبر** الذي اسـتيقظ ضميره من الغفلة، فاستشعر الحرج في الرجوع بدون بنيامين..

"إن هـذا المشهد بحق هـو مشهد المشاعر، وهي مشاعر إيجابيـة في معظمها، وسوف تكون بداية لانفراج الأزمة بإذن الله"

وفيـما يلي شيء من الحكم والعـبر والدلالات التي تناولها هذا المشهد:





١ لقاء الأحبة:

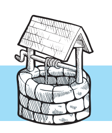
قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ (يوسف:٦٩).

إِنِّي أَنَا أَخُوكَ، ما أجمل هذه الكلمة الرقيقة التي عبر بها يوسف عما يجيش في صدره من مشاعر الحب لأخيه وشدة التلهف عليه، وقد طوى السياق القرآني مساحة زمنية ليست بالقليلة، قضاها يوسف في الانفراد بأخيه بعيدًا عنهم، ثم ما تلا ذلك من كشف يوسف عن شخصيته لأخيه، وما تم بينهما من تجاذب لأطراف الحديث، كل هذه التفاصيل لم يذكرها القرآن لبداهتها ابتداءً، ولمحدودية الفائدة منها، إنما كان تسليط الضوء على «**المعاناة المشتركة**» التي كانا يعانيان منها على يد إخوتهم، من هنا كان الهدف الأول للسياق أن يوضح لنا لحظات الحنان والدفء التي غلف بها يوسف الموقف، فقد كان حرصه على طمأنة أخيه والتفريج عن كربه هو الشغل الشاغل له.

وهذه الآية لا ينقطع منها العجب في مفرداتها، وإيحاءاتها، ودلالاتها، والجو العام الذي سيقت فيه، **فتأمل كلمة آوى**، وما تلقيه من لمسات العطف والاحتواء والضم، **وتأمل مسحة الحنان والأمل** في كلمة ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾، **وتأمل عمق العلاقة** وقوة الوشائج، وصدق النبض في ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾..

"فجزى الله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خير الجزاء على تلك اللمسات الوفية الحانية التي أغدق بها على أخيه، والتي مثّلت شلالًا من المحبة والصفاء ينهل منه كل قارئ لهذا الموقف عبر التاريخ"



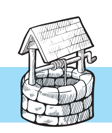


٢ حيلـة جديـدة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ...﴾ ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٧٠-٧٦).

في هـذه الآيـة دليـل عـلى جـواز التوصُّـل إلى الأغـراض الصحيحـة بـما صورته صورةَ الحيلـة والمكيـدة إذا لم يخالف ذلك شرعًا ثابتًا، فما كان يوسـف ليأخذ أخـاه بنيامين في دين الملك أي ملك مصر، وفي شريعته التي كان عليها، بل كان دينه وقضاؤه أن يضرب السارق ويغرم ضعف ما سرقه دون الاستعباد سنة كما هو دين يعقوب وشريعته.

وحاصله أن يوسـف مـا كان يتمكن من إجراء حكم يعقوب عـلى أخيـه مع كونه مخالفا لدين الملك وشريعتـه لولا ما كاد الله له ودبـره وأراده حتـى وجد السـبيل إليه، وهو ما أجراه على ألسـن



إخوته من قولهم: إن جزاء السـارق الاسـترقاق، فكان قولهم هذا هو بمشـيئة الله وتدبيره، وهو معنى قوله: إلا أن يشـاء الله أي إلا حال مشـيئته وإذنـه بذلك وإرادته له، وهـذه الجملة أعني ما كان ليأخـذ أخاه إلخ تعليل لما صنعه الله من الكيد ليوسـف أو تفسـير له[(١)].

وجملـة نرفـع درجـات من نشـاء تذييـل لقصة أخذ يوسـف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أخاه لأن فيها رفع درجة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الحال بالتدبير الحكيـم مـن وقت مناجاته أخاه إلى وقت اسـتخراج السـقاية من رحلـه. ورفـع درجة أخيـه في الحـال بإلحاقه ليوسـف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في العيـش الرفيـه والكـمال بتلقـي الحكمة مـن فيه. ورفـع درجات إخوتـه وأبيـه في الاسـتقبال بسـبب رفـع درجة يوسـف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وحنـوه عليهـم. فالدرجات مسـتعارة لقوة الشرف من اسـتعارة المحسوس للمعقول[(٢)].



(١) فتح القدير (٣/ ٥٢)، بتصرف.
(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٣٣).

٣ حقد قديم وخُلق كريم:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾

(يوسف:٧٧).

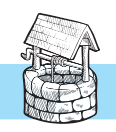
نطق الحقد على ألسنة إخوة يوسف، وانفجر الحسد القديم في قلوبهم، فاتهموا يوسف بالسرقة كذبًا منهم، وتضليلًا، فمع كل هذه السنين، ومع طول المدة، وتغير الأيام، وتبدل الأحوال، إلا أن الحقد والحسد ما زال يأكل قلوبهم، رغم أن يوسف غاب عنهم، وأصبح بالنسبة لهم ماضيًا وذكرى، فهل يا تُري كانوا صادقين مع أنفسهم يوم أن قرروا فعل الجريمة، وظنوا أن حالهم بعدها سوف يتبدل..

"وهل صدق معهم شيطانهم عندما زين لهم المعصية، ومنَّاهم بالتوبة بعدها، فقال لهم: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴾ (يوسف:٩)، هاهي السنون قد مضت، والأعوام قد انقضت، ولم يصبحوا قومًا صالحين كما ظنوا"

وإن الإنسان ليتعجب من خفة العقل، وشدة الطيش الذي ابتلي به إخوة يوسف، فهم في ورطة بسبب اتهام أخيهم بالسرقة، والمنطق العاقل يحتم عليهم بذل كل الوسع في نفي التهمة عنهم وعن أسرتهم، والناس في مثل هذه الأحوال يحاولون دائمًا إثبات أنهم لا يعرفون هذه الطرق الملتوية، ويستشهدون بماضيهم النظيف وسيرتهم الحسنة، وغير ذلك من أنواع الدفوع التي تسهم في تبرئتهم.

لكن أن يُفصحوا في هذا الموقف عن واقعة سرقة قديمة لأحد أخوتهم -على فرض صحة ادعائهم- فهذا من أعجب العجب،وكأنهم يلَقِّنُون الوزير حجة اتهامهم، فإذا سرق أحد إخوتكم بالأمس، فليس بمستغرب أن يسرق أخوه اليوم، فثبتوا على أنفسهم وعلى أخيهم التهمة دون أن ينتبهوا، لأن غاية أملهم كان تبرئة أنفسهم كإخوة من نفس الأم، أما أبناء زوجة الأب التي أولادها يوسف وبنيامين، فهم ليسوا مسئولين عن تصرفاتهم وأفعالهم، فنعوذ بالله من الخذلان، ومن عمى البصيرة.

وما أروع هذه الصورة المشرقة التي أبداها يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، من الحياء الجم والأدب البالغ، فإخوة يوسف عزموا على قتله،



وأســهموا في تشريده وإبعــاده عن أبيه، وبعد ذلـك يتهمونه كذبًا بالسرقـة، ومع ذلك لم يعاتبهم إلا في نفســه ولم يجهر برد الإســاءة لهم مع أنهم يستحقونها، بل هم لها أهل، وأي ضبط للنفس وكظم للغيظ هذا الذي يجعل وزيرًا يتحمل اتهامه بالكذب من قوم سبق لهــم أن أضروا به وبالغــوا في إيذائه، مع قدرتــه الكاملة على إيقاع أقصى الأحكام عليهم.

أليســت هــذه التهمة كفيلـة بتفجُّر الغضب في نفس يوســف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهــو الصــادق الأمين، المكـين المؤتمن، وهــل يُتصور أن يكون الرد على ذلك هو هذه الجملة فقط: ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (يوسـف:٧٧)، ومع ذلك لم يواجهُّم بها، بــل قالهــا في نفســه، أي في سِره، فســبحان من وهب يوســف هذه الأخلاق العالية، والمثل القيمة، فإن الله حكيم في أفعاله وأرزاقه، فكما لا يُتصور أن يتلبس يوسف بشيء من أخلاق إخوته المنكرة، كذلك لا يتصور أن تكون هذه الصفات الجميلة موجودة في تلك النفوس الخبيثة، اللهم إلا إذا تابت وتطهرت.



٤ توسل ورجاء:

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ﴾

(يوسف:٧٨-٧٩).

أراد إخوة يوسف أن يستعطفوه ليطلق لهم أخاهم بنيامين يكون معهم فيرجعون به إلى أبيهم لما تقدم من أخذه الميثاق عليهم بأن يردوه إليه، فقالوا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ أي إن لبنيامين هذا أبًا متصفًا بهذه الصفة، وهو كونه شيخًا كبيرًا لا يستطيع فراقه ولا يصبر عنه ولا يقدر على الوصول إليه فخذ أحدنا مكانه يبقَ لديك، فإن له منزلة في قلب أبيه ليست لواحد منا فلا يتضرر بفراق أحدنا كما يتضرر بفراق بنيامين، ثم عللوا ذلك بقولهم: إنا نراك من المحسنين إلى الناس كافة، وإلينا خاصة، فتمم إحسانك إلينا بإجابتنا إلى هذا المطلب، فأجاب يوسف عليهم بقوله: معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده أي نعوذ بالله، فالأصل أن لا نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده، وهو بنيامين لأنه

الـذي وُجِـد الصواع في رَحْلِه فقد حل لنا اسـتعباده بفتواكم التي أفتيتمونـا بقولكم: جـزاؤه من وجد في رحله فهو جـزاؤه، إنا إذا لظالمـون أي إنـا إذا أخذنا غير من وجدنا متاعنـا عنده لظالمون في دينكم وما تقتضيه فتواكم[١].

وتأمـل حرص يوسـف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **في اختيـار الكلمـات**، وانتقاء الألفاظ، فلما عرض عليه إخوته أن يأخذ أحدهم بدلًا من بنيامين، قـال: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾، ولم يقـل عنـد من سرقَنَـا؛ لأنه لم يسرق على الحقيقـة، وهنا تجد أن يوسـف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهـو الوزيـر العادل، يحـترز من أن يقـع في ظلم لفظي لا يترتب عليه عقوبة ولا ضرر، وهو من لوازم الحيلة التي احتالهـا، فما بال من يظلم النـاس ويقهرهم، ويعتدي على أموالهم ودمائهم وأعراضهم دون أن يلتفت إلى أنينهم وأوجاعهم..

"إن العـدل أساس الملك وبـه قامت السماوات والأرض، أما الظلم فظلمات في الدنيا والآخرة، وما أسهل زوال الحكام وسقوط الأنظمـة عـن طريق الظلـم، ومـا أكـثر مـا يتكرر ذلـك في تجـارب الأمم القديمـة والحديثـة، ولكن أكثر النـاس في غفلة عن هذه الحقائق"

---

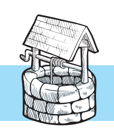
(١) فتح القدير (٣/ ٥٥)، بتصرف.

٥ صحـوة الضمير:

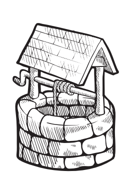
قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (يوسف:٨٠).

ألقى الله في قلب كبيرهم صـحوة وإفاقة جعلته يهتم كثيرًا بأمر الميثاق الذي بينهم وبين أبيهم، وجعلته يتذكر ما فعلوه مع يوسف قديمًا، وقد ظهرت عليه علامات الحزن وبوادر الندم، وبرهانًا منه على ذلك قرر ألا يرجع معهم، وأن يعود إخوته إلى أبيهم بمفردهم ليشرحوا له طبيعة الموقف.

ولـو لم تكـن لحقت به هذه الصحـوة، لرجع معهـم إلى أبيهم دون أن يحمـل هم الميثاق ولا هم غيره، كما فعلوا مع يوسـف من قبل، وقد كان شرط يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مستثنى منه حالة العجز عن حمايتـه دون تفريـط منهم، فقـال لهم في ميثاقه الـذي أخذه عليهم ﴿ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ (يوسف:٦٦)، وقد كان بإمكانه أن يعتبر هذه



الحالة ضمن الحالات المعجوز عنها، ولكنه أصر على عدم الرحيل معهم إمعانًا في إثبات صدقهم، وانزعاجًا من مخالفة الميثاق الذي أخذوه على أنفسهم.



التواصل بين القارئ والكتاب

ما هي الدروس التي تعلمتها من هذا المشهد؟ وما هي المشاعر والانطباعات التي استقرت في وجدانك أثناء قراءتك للمشهد؟ وما هي النصائح التي يمكن أن تنصح بها غيرك تطبيقًا لما تعلمته، وإعمالًا لواجب النصيحة مع من تحب له الفوز والنجاة؟

☑ **الدروس التي تعلمتها هي:**

١- ....

٢- ....

٣- ....

☑ **المشاعر التي استقرت في وجدانك هي:**

١- ....

٢- ....

٣- ....

☑ **النصائح التي تحب أن تنصح بها غيرك هي:**

١- ....

٢- ....

٣- ....


المشهد الثامن
٨


إخــــوة يوســـف في
مواجهة أبيهم مرة أخرى





★ المشهد كما وصفه القرآن.

★ تفاصيل المشهد.

★ رسائل من قلب الحدث.

١ براهين الصدق.

٢ الصبر الجميل والأمل المتجدد.

٣ الأحزان تتضاعف.

٤ مشاعر جافة وعقوق ظاهر.

٥ الشكوى إلى الله طمأنينة وراحة.

٦ الأمل من الإيمان.



المشهد كما وصفه القرآن

قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (يوسف:٨١-٨٧).



تفاصيل المشهد



رغم أن إخوة يوسف قد قدموا لأبيهم قصة تبدو صادقة ومنطقية، إلا أن سابقتهم في الغدر والخيانة وقفت حائلًا أمام تصديقهم، فضلًا عن أن الأدلة التي قدموها على صدق دعواهم، لا يمكن ليعقوب التحقق منها، فأنى له بالقافلة التي كانوا يرافقونها حتى يسألها، وأنَّى له بالسفر إلى مصر ليستوثق من القصة.

هنا ازداد البلاء على يعقوب، وهيجت هذه الواقعة عنده لوعة فقدان يوسف وانكبَّ باكيًا حزينًا حتى ظهر ذلك على عينيه بما يشبه العمى، وكأن إخوة يوسف قد استكثروا على أبيهم الشيخ الكبير أن يحزن وأن يتألم، وكأنهم لا يطيقون سماع ذكر يوسف على لسانه، فتقمصوا ثوب الناصح الأمين في أنه إذا استمر به الحال على ذلك فربما يفقد حياته بسبب هذا الحزن، هنا قطع عليهم يعقوب هذا الطريق وأخبرهم أن ما به من هم وغم وحزن إنما يتوجه به إلى الله لا إليهم، وأن علمه بالله عَزَّوَجَلَّ يختلف عن علمهم. وقد أرشدهم إلى ضرورة التحرك وبذل الجهد في السعي للبحث الجاد عن يوسف وبنيامين، وحذرهم من مغبة اليأس أو القنوط من رحمة الله.

رسائل من قلب الحدث

يقف الإنسان مبهورًا أمام هذا المشهد وهو يمثل **طلقات حاسمة في حرب اليأس**، والتي بطلها هنا هو يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ذلك الشيخ الكبير، هادئ الطبع، رابط الجأش، قوي الصلة بالله عَزَّوَجَلَّ، تنزل عليه المصيبة تلو الأخرى، فيتلقاها بالصبر الجميل، والثناء الحسن على ربه عَزَّوَجَلَّ كأن ما به بلاء، فبدلًا من فقده يوسف في بداية الأمر، إذ به يفقد يوسف وبنيامين، ويغيب عنه ابنه الأكبر، ومع ذلك لم ييأس ولم يجزع، بل نجده يعطي لأبنائه جرعات إيجابية من الأمل والتفاؤل والثقة في رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، كأنه سليم معافًى، وهم أهل المصيبة والبلاء.

وهذا الموقف الرائع يذكرنا بموقف موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي خرج من مدينته خائفًا فزعًا من محاولة التربص به وقتله، وانطلق إلى الصحراء بلا مال ولا طعام ولا مأوى ولا زوجة ولا عمل، ومع ذلك كان دعاؤه لربه خاليًا من الجزع أو التسخط، ولم تبدُ عليه علامات اليأس والإحباط، بل ناجى ربه قائلًا: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ

﴿أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، فكأنه يقول لربه أنا في خير عميم ولكني أحتاج إلى المزيد من هذا الخير، فكافأه الله عَزَّوَجَلَّ على هذا الإيمان والتوكل، ومنَّ عليه بالأمن والعمل والسكن والزوجة، وفيما يلي شيء من الحكم والعبر والدلالات التي تناولها هذا المشهد:



١ براهين الصدق:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ (يوسف:٨٢).

الصادق دائمًا تكون أدلته وشواهده متوافقة مع قواعد العقل والمنطق، بخلاف الكاذب الذي يتعلق بخيوط أوهى من خيوط العنكبوت، وبالمقارنة بين ما ساقوه من مبررات في مؤامرتهم الأولى على يوسف وبين مبرراتهم التي ذكروها هنا يتبين الفرق. فأدلتهم رغم صعوبة التحقق منها إلا أنها واقعية، فضلًا عن أن شعورهم بالذنب هذه المرة مختلف عن المرة السابقة.



٢ الصبر الجميل والأمل المتجدد:

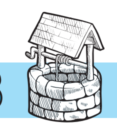
قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (يوسف:٨٣).

"من عقوبة الكذب في الدنيا، أن الكاذب يُتشكك في خبره كلِّه، حتى لو أخبر ببعض الصدق"

وبالتالي لم يُصدِّق يعقوب هذه الدعوى منهم لسبقهم إلى الكذب والغش والخيانة من قبل، ولم يكن هذا الأمر سوء ظن من يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقدر ما هو توقع الشر ممن دأبهم الخداع والمكر، بالإضافة إلى أن يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يتصور في ابنه السرقة، لأنه يعرف سجاياه، ويعلم أخلاقه، فادعاؤهم أنه سرق لم يجد له مسلكًا من القبول عند يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

ومع ذلك لم يكن أمام يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلا أن يتسلح بالصبر الجميل الذي لجأ إليه في المرة الأولى..

"والصبر الجميل هو الذي لا يبوح صاحبه بالشكوى، بل يفوض أمره إلى الله ويسترجع"



ومع ذلك لم ينقطع رجاؤه وأمله في الله، بل دعا الله بدعاء عجيب فقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾، أي بيوسف وأخيه بنيامين، والأخ الثالث الباقي بمصر، وهذا يدل على أنه رغم كل هذه السنين التي فقد فيها يوسف، إلا أنه واثق في رحمة الله برد يوسف إليه، وواثق أيضًا أنه ما زال على قيد الحياة حتى وإن غاب عنه خبره.



٣ الأحــزان تتضاعف:

قال تعالى: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

(يوسف:٨٤).

حزن يعقوب وبكاؤه لا يتنافى مع الصبر الجميل وقوة التحمل وصدق الدعاء والتوكل، ورغم أن الحدث يدور حول بنيامين، إلا أن فقدان بنيامين هيج في قلبه ذكرى فراق يوسف، وهذا يدل أن تفاوت منازل الحب في القلوب أمر اضطراري، ليس للإنسان كبير دخل فيه.





٤ مشاعر جافة وعقوق ظاهر:

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُا۟ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾

(يوسف:٨٥).

حرارة المشاعر لا يفهمها إلا من عايشها وجربها، فإخوة يوسف لم يحزنوا على فراقه لأنهم كانوا سببًا في ذلك، ومع أنهم كانوا سبب أحزان أبيهم ومنشأ همومه وغمومه، إلا أنهم لم يقدروا مشاعر أبيهم الملتاعة المتألمة لفراق من يحب.

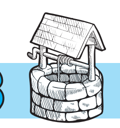


٥ الشكوى إلى الله طمأنينة وراحة:

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف:٨٦).

قطع يعقوب على أولاده محاولاتهم إثناءه عن انغماسه في الحزن بالدرجة التي خشوا فيها عليه من المرض أو الهلاك، ومع أن نصيحتهم له كانت فظة غليظة، لم يراعوا فيها كبر سنه، ووهن عظمه، واشتداد كربه وهمه، ولم يراعوا أنهم المتسبب الأصلي لما هو فيه من كرب وغم، إلا أن رده عليهم، كان ردًّا تأسيسيًا قبل أن يكون ردًّا على موقف عارض، فالمعذبون في الأرض ممن لا نصير لهم ولا معين، أمامهم باب مفتوح لا ينغلق عنهم، ولا يُسد في وجوههم

"فمناجاة الله عَزَّوَجَلَّ وبث الألم والشكوي إليه، علاج وراحة، وسكينة واطمئنان، تبرد حر المصيبة، وتخفف من ألم المعاناة"



ولكـن أنَّى لمن لم يجـرب ذلك أن يقـدره ويفهمه، وقد أعقب يعقوب رده عليهم بقوله: ﴿ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾، لينبههـم إلى قصور عقولهم عن إدراك المقاصـد العالية، وليعلموا أنهم دون مرتبة أن يُعَلِّموه أو يلوموه.



٦ الأمل من الإيمان:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (يوسف:٨٧).

اشتكى يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ربه وبث إليه همه وحزنه، فأبدله الله مكانه ثقة وأملًا ورجاءً، من هنا كان الرجاء في الله لا ينقطع ولا يتأثر مهما كان الواقع أليمًا ومحبطًا، وقصة يوسف تركز على هذه القضية تركيزًا شديدًا.

"يقول ابن عطاء: لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها"

وقد أمرهم يعقوب أن يتحسسوا لا أن يتجسسوا، والفرق بين التحسس والتجسس؛ أن التجسس فيه الاطلاع على العورات والاستماع إلى حديث من لا يريدك أن تستمع إلى حديثه، أما التحسس فهو تفقد الأخبار، وجمع المعلومات بدون أن تسمع لحديث قوم لا يريدون أن تستمع لحديثهم ولا النظر من ثقب الباب أو الاطلاع على عورات القوم وهكذا.



التواصل بين القارئ والكتاب

ما هي الدروس التي تعلمتها من هذا المشهد؟ وما هي المشاعر والانطباعات التي استقرت في وجدانك أثناء قراءتك للمشهد؟ وما هي النصائح التي يمكن أن تنصح بها غيرك تطبيقًا لما تعلمته، وإعمالًا لواجب النصيحة مع من تحب له الفوز والنجاة؟

☑ **الدروس التي تعلمتها هي:**

١- ....

٢- ....

٣- ....

☑ **المشاعر التي استقرت في وجدانك هي:**

١- ....

٢- ....

٣- ....

☑ **النصائح التي تحب أن تنصح بها غيرك هي:**

١- ....

٢- ....

٣- ....





المشهد التاسع
٩

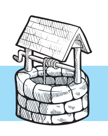


يوسف
والصفح الجميل




محتويات
المشهد





المشهد كما وصفه القرآن

قَالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (يوسف:٨٨-٩٨).

تفاصيل المشهد



عاد إخوة يوسف إلى مصر مرة أخرى، وقد اضطرتهم ظروفهم المعيشية الصعبة ليقفوا أمام العزيز ليمتاروا منه، وهم بالأمس القريب كانوا متهمين عنده بالسرقة، وفوق كل ذلك فليس معهم ما يمكن أن يأخذوا في مقابله طعاما، فبضاعتهم مزجاة أي رديئة، ومع ذلك يطلبون منه أن يزيد لهم الكيل وأن يتصدق عليهم، فقد أصابهم من أجل هذا القحط ضرر بالغ أثر عليهم وعلى أهلهم، **فما أصعب هذا المشهد!!**

هنا لم يتحمل يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ -بما آتاه الله من كريم الأخلاق وجميل الصفات- الموقف الذي يقفه إخوته، وهو أقرب ما يكون لموقف الضعيف المسكين الذي ينتظر العطف والصدقة، فقرر أن يكشف لهم عن شخصيته بطريقة لطيفة وعبارة رقيقة، بها مس من العتاب الراقي المهذب فقال: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾؟! (يوسف:٨٩) هنا اتضحت لهم الصورة وانكشف عنهم السر وتعرفوا على يوسف.

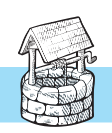
وقتها أهلّت على قلوبهم لحظة عرفان نادرة، ربما تطل عليهم لأول مرة، حيث نطقوا بالحقيقة التي حاولوا إنكارها أو نفيها

طول هذه السنين، فنطقت ألسنتهم، وأيقنت قلوبهم: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ (يوسف:٩١).

"في هذه اللحظة انتصر إخوة يوسف على هوى أنفسهم وعلى شيطانهم واعترفوا بالفضل لأهل الفضل وبدأوا في مقاومة داء الحقد والحسد الذي تمكن من قلوبهم"

وفي المقابل تقبل يوسف بوادر هذه التوبة، وأعلن عن صفحه الجميل وسماحته العالية وقال: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ (يوسف:٩٢)، قال ابن إسحاق والثوري: لا تثريب عليكم أي لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتم، ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ أي يستر الله عليكم فيما فعلتم ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

بعد ذلك بدرت من يوسف لفتة مرهفة الحس، حيث أرسل قميصه الذي لابد أن يكون فيه شيئًا من رائحة الإنسان الطبعية، أرسله إلى أبيه مع إخوته، فكما دخلوا عليه قبل ذلك بقميصه ملطخًا بالدماء فليدخلوا عليه اليوم بقميصه المفعم برائحته التي غابت عنه سنين طويلة، وكما تسبب القميص الأول في حزنه وبكائه إلى حد العمى، فليكن القميص الثاني سببًا في انشراح صدره ونشاط روحه وردة بصره.



وحدث كما توقع يوسف بل أكثر مما توقع، فما إن تحركت القافلة من مصر وقاربت على الوصول حتى هاجت ريح يوسف في أنف يعقوب، وصارح بنيه بهذا الشعور رغم خوفه من قسوة تعليقهم، وقد صدق ظنه فيهم فما إن قال لهم ذلك حتى نسبوه إلى الخرف والخطل قال قتادة: قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وما هي إلا فترة يسيرة حتى أتى الرسول بقميص يوسف فوضعه على وجه يعقوب فعاد إليه بصره وقال لبنيه عند ذلك ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون أي أعلم أن الله سيرده إليَّ، وعندها طلبوا من أبيهم أن يدعو لهم ويستغفر لهم وعدهم أنه سيفعل ذلك ربما بدرجة قبول أقل من الدرجة التي استقبلها بهم يوسف، لأن الألم الذي يعانيه الأب من فقدان ولده لا يمكن أن يزول أثره سريعًا، وربما تركهم رغبة منه في التأكد من صدق توبتهم.





رسائل من قلب الحدث

هذا المقطع من القصة يرشـد إلى ثـلاث فضائل كبرى، تجلت في هذا الموقف الجميل الذي شـهد لأول مرة تصافح القلوب بود وصفاء، بعد أن ملأها الشيطان حقدًا وغلًّا وعداوة..

"وهـذا الموقـف الآسر علـى وجازتـه إلا أن تـأثيره عظيـم النفع، لأنه يمثل لحظة مـن اللحظات التي انتصـرت فيهـا النفس البشريـة علـى وساوس شيطانها وعلى خلجات نفوسها"

فقد ظهر:

أولًا: أثـر التوبـة وأهميتهـا في تصحيـح السـلوك، وصـلاح الأحوال، ثم يظهر:

ثانيًا: فضل الاستغفار ومدى تأثيره في سلوك إخوة يوسف، وتأتي:

ثالثًـا: فضيلة العفو والوفاء التي ظهرت في سـلوك يوسـف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، كل هـذه المعاني وغيرها لا يكتمل بناء النفسـية السـليمة للإنسان إلا بتحقيق القدر الواجب منها على الأقل.

وفيـما يلي شيء من الحكم والعـبر والدلالات التي تناولها هذا المشهد:

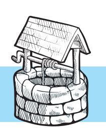
١ الضعف المهين:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾

(يوسف:٨٨).

دوام الحال من المحال، فسبحان من بيده ملكوت كل شيء، ومن كمال عدله عَزَّوَجَلَّ أنه يؤيد المظلوم ولو بعد حين ويجعله في منزله عالية إذا صبر وأتقى، فقد جعل الله جزاء من كادوا ليوسف ومكروا به وأرادوا ذله وهوانه، أن جاءوا إليه اليوم متسولين شحاذين يطلبون البر والصدقة.

ومن سلوك يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يتعلم الإنسان أنه إذا رأى محتاجًا في موقف ذل وحاجة –خصوصًا إذا كان من ذوي قرابته ورحِمِهِ–، فإنه لا يزيد همَّهُ وذله بل يرق لحاله، حتى وإن لم يكن له سابقة فضل أو معروف، فيوسف ما كان يريد أن يتشفى في إخوته، ولو كان يريد ذلك لتركهم يسألونه مرة بعد أخرى، حتى يتذللوا له في السؤال وهو يتمنع، ولكن ما كانت هذه بأخلاق الكرماء، وما كان هذا سلوكه الذي اتسم به من بداية القصة.



٢ العتــاب الراقــي:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴾ (يوسف:٨٩).

مـا أرقَّ هـذا العتاب، ومـا أرقى هذا الأسـلوب، فالاسـتفهام بـ(هـل): مفيـد للتحقيـق لأنهـا بمعنى (قـد) في الاسـتفهام.فهو توبيـخ عـلى مـا يعلمونـه محققًـا مـن أفعالهم مع يوسـف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وأخيه، أي أفعالهم الذميمة بقرينة التوبيخ، وهي بالنسبة ليوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ واضحة، وأما بالنسبة إلى بنيامين فهي ما كانوا يعاملونه به مع أخيه يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من الإهانة التي تنافيها الأخوة[١].

وقـد نفي عنهم العلـم وأثبت لهم صفة الجهل لأنهم لم يعملوا بـما يقتضيه العلـم، أو أنه أثبت لهـم صفة الجهل لقصـد الاعتذار عنهـم وتخفيـف الأمـر عليهم، فكأنه قـال: إنما أقدمتـم على ذلك الفعـل القبيـح المنكر وقت عدم علمكم بما فيـه من الإثم وقصور معارفكـم عـن عاقبتـه، وما يترتب عليـه، أو أراد أنهـم عند ذلك في أوان الصبـا وزمـان الصغـر، اعتذارًا لهم ودفعًـا لما يدهمهم من

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٤٧).

الخجل والحيرة مع علمه وعلمهم بأنهم كانوا في ذلك الوقت كبارًا[1].

وقد تحقق موعود الله ليوسف عندما أوحى إليه بقوله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لقد وقع الأمر كما ذكر القرآن، فلم يزد يوسف في كلامه لهم عن مجرد الإنباء، ولم ينزع إلى تأنيبهم أو إخجالهم، بقدر ما وصف أفعالهم المنكرة التي فعلوها بالجهل، وهذا أقل ما يمكن أن يُوصفوا به، ولتلحظ هنا أن موعود الله ليوسف لم يتحقق بعد عام ولا عامين، بل بعد عشرات السنين..

"من هنا نعلم أنه لا قيمة للتعلق بالزمن إذا كان الحديث عن موعود الله للمؤمنين، فقد يتحقق الوعد سريعًا، وقد يتأخر قليلًا، وقد يبعد مداه جدًّا، والعلم في ذلك عند الله"

والإنسان يعمل ما عليه دون أن يتعلق بزمن محدد، فالزمن من الغيب وقد أخفاه الله عنا، حتى يبقى للاختبار وللجزاء من بعده هدف ومعنًى.

---

(١) فتح القدير (٣/ ٦٢).

٣ المواجهة المخجلة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

(يوسف: ٩٠).

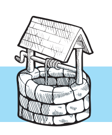
كشف يوسف لإخوته عن حقيقة شخصيته،وسبب معرفتهم له قوله لهم: ﴿ مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾؛ لأنه لما قال لهم ذلك تنبهوا وفهموا أنه لا يخاطبهم بمثل هذا إلا يوسف، أما قوله لهم ﴿ وَهَٰذَآ أَخِي ﴾ مع كونهم يعرفونه ولا ينكرونه، فقصده وهذا أخي المظلوم كظلمي ﴿ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآ ﴾ بالخلاص عما ابتلينا به، وبالتجمع بيننا بعد التفرق.

وجملة ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ ﴾ تعليل لجملة ﴿ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآ ﴾. فيوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ اتقى الله وصبر وبنيامين صبر ولم يعص الله فكان تقيًّا، وقد أراد يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ تعليمهم وسائل التعرض إلى نعم الله تعالى، وحثهم على التقوى والتخلق بالصبر تعريضًا بأنهم

لم يتقوا الله فيه وفي أخيه ولم يصبروا على إيثار أبيهم إياهما عليهم. وهذا من أفانين الخطابة أن يغتنم الواعظ الفرصة لإلقاء الموعظة، وهي فرصة تأثر السامع وانفعاله وظهور شواهد صدق الواعظ في موعظته[1]. وهذه القاعدة التي ذكرها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من القواعد الكلية الجامعة التي لا تتخلف أبدًا، ولا يتبدل أثرها مطلقًا.



(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٤٩)، بتصرف.



٤ عندما يشرق النور في القلب:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ (يوسف:٩١).

بداية الندم الحقيقيّ والتوبة الصادقة بشهود فضل الله على عباده ونزع الغل والحقد والحسد من القلوب والنفوس، وقد كانت هذه الكلمة بمثابة ولادة جديدة لقلوبهم، وصفحة أخرى من صفحات حياتهم، مختلفة عما سبقها في سنوات عمرهم الماضية.

"وهذا الأمر يفتح بداية الأمل لكل المذنبين والعاصين، فمهما بلغت ذنوب الإنسان، ومهما تكاثرت خطاياه، فإن باب التوبة مفتوح، ورحمة الله لا تنقطع، والقلوب كما صدأت وتغيرت بالذنوب، فيمكن أن تنير وتشرق بالطاعة والتوبة، وقد جعل الله للتوبة الصادقة فضيلة محو الذنوب السابقة، وهذا من أعظم ما يشجع النفس ويرغبها على الانتقال إلى حياة النقاء والطهر، والتحرر من أسر الهوى والنفس والشيطان"



٥ العفـو الصـادق:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (يوسف:٩٢).

لما قال إخوة يوسف مقالتهم المتضمنة للاعتراف بالخطأ والذنب استجلابًا لعفوه واستجذابًا لصفحه، رد عليهم يوسف الكريم، بأكرم مما قالوه، فقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ أي لا تعيير ولا توبيخ، ولا لوم عليكم..

”فالحقيقة أن العفو والصفح من شيم العظماء“

«فإن تجاوز يوسف عن ذنب إخوته، وإبقاءه عليهم، ومصافاته لهم، تعلِّمُنا أن نغفر لمن يسيء إلينا، ونحسن إليه، ونصفي له الودّ، وأن نغضي عن كل إهانة تلحق بنا، فيسبغ الله تعالى إذ ذاك علينا نعمه وخيراته في هذه الدنيا، كما أوسع على يوسف ويورثنا السعادة الأخروية. وأما إذا أضمرنا السوء للمسيئين إلينا، ونقمنا منهم، فينتقم الله منا، ويوردنا مورد الثبور، فنعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا»[١].

(١) محاسن التأويل (٦/ ٢١٥).

وقد طبق نبينا العظيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الخلق الكريم مع أشد الناس عداوة وهجاءً له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أبو سفيان بن الحارث الذي أسلم قبيل فتح مكة، وذهب إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأعرض عنه، فاستنصح أبو سفيان عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما يصنع، فقال له علي: «ائته من قبل وجهه وقل له: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ (يوسف:٩١)، فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن مردودًا منه، ولما فعل ذلك نظر إليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال له: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ (يوسف:٩٢).



٦ الوفاء بالجميل:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (يوسف:٩٣).

لفتة طيبة، ولمسة حانية من يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حيث جعل إرسال قميصه علامة على صدق إخوته فيما يبلغونه إلى أبيهم من أمر يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بجلبه فإن قمصان الملوك والكبراء تنسج إليهم خصيصًا ولا توجد أمثالها عند الناس وكان الملوك يخلعونها على خاصتهم، فجعل يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إرسال قميصه علامة لأبيه على صدق إخوته أنهم جاءوا من عند يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بخبر صدق[١].

ولم يكتف يوسف بدعوة أبويه فقط، بل شملت الدعوة كل أهله، وهذا من الوفاء الجميل، والبر الأصيل، فلم يكن ليوسف أن يهنأ بالعيش الرغيد، والحياة السهلة، وإخوته وأهله يعانون من شظف العيش، وخشونة الحياة، وقسوة الصحراء.

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٥١).

٧ شوق حميم وعقوق أليم:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ (يوسف:٩٤-٩٥).

بمجرد أن انطلقت القافلة عائدة تجاه منزل يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وجد رائحة يوسف تهيج في أنفه، ووجدان يعقوب لريح يوسف عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ إلهام خارق للعادة جعله الله بشارة له إذ ذكره بشمه الريح الذي ضمخ به يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين خروجه مع إخوته وهذا من صنف الوحي بدون كلام ملك مرسل. وهو داخل في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾ [الشورى:٥١]، والريح: الرائحة، وهي ما يعبق من طيب تدركه حاسة الشم(١).

وقد قال يعقوب هذا القول لمن بقي معه من أبنائه، أو من الحاضرين من أهله وقد خاف أن ينسبوه إلى الجنون والسفه واختلال العقل، ولم يكذب ظنه فيهم، فقد ردوا عليه ردًّا شديدًا قاسيًا، لا يليق بأب، فضلًا عن كونه نبيًّا، فقد أقسموا بالله على أن به مسًّا من الخرف وتغير العقل.

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٥٢).

٨ التوبة هي العلاج:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ٩٧ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (يوسف:٩٧-٩٨).

وقولهم: استغفر لنا ذنوبنا توبة واعتراف بالذنب، فسألوا أباهم أن يطلب لهم المغفرة من الله. وإنما وعدهم بالاستغفار في المستقبل إذ قال: سوف أستغفر لكم ربي للدلالة على أنه يلازم الاستغفار لهم في أزمنة المستقبل. ويعلم منه أنه استغفر لهم في الحال بدلالة الفحوى ولكنه أراد أن ينبههم إلى عظم الذنب وعظمة الله تعالى وأنه سيكرر الاستغفار لهم في أزمنة مستقبلة(١).

ويجمل بنا في هذا المقام أن نقف وقفة مع يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لنتتبع به ردود أفعاله تجاه هذا الكم الهائل من المصائب التي لحقت به، لنرى شهوده لنعم الله عليه، وإدراكه لحقيقة أسماء الله وصفاته، ففي بداية القصة نجده يربي يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على معاني شكر النعمة وتعظيمها ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٥٤).

ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (يوسف:٦)، وفي مواجهة الصدمة الأولى بفقد يوسف يتجه إلى ربه مستعينًا به: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (يوسف:١٨).

وفي مواجهته لعاطفته الأبوية الخائفة على أبنائه، وهو يوصيهم ألا يدخلوا من باب واحد وأن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة، لا ينسى ربوبية الله وألوهيته فيقول: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (يوسف:٦٧)، **وفي مواجهة الصدمة الثانية بفقد ولده الثاني بنيامين**، لم يتسرب اليأس إلى قلبه من رحمة ربه لحظة واحدة: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (يوسف:٨٣).

ولما لامه أبناؤه على حزنه على يوسف وبكائه عليه حتى تبيض عيناه من الحزن فيواجههم بأنه يجد حقيقة قدرة ربه في قلبه كما



لا يجدونها، ويعلم من شأن ربه ما لا يعلمون: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (يوسف:٨٥-٨٧)، وهنا في نهاية القصة بعد أن يطلب منه أبناؤه الاستغفار لهم، يقول مثنيًا على ربه بما يستحقه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (يوسف:٩٨).





التواصل بين القارئ والكتاب

ما هي الدروس التي تعلمتها من هذا المشهد؟ وما هي المشاعر والانطباعات التي استقرت في وجدانك أثناء قراءتك للمشهد؟ وما هي النصائح التي يمكن أن تنصح بها غيرك تطبيقًا لما تعلمته، وإعمالًا لواجب النصيحة مع من تحب له الفوز والنجاة؟

☑ **الدروس التي تعلمتها هي:**

١- ....

٢- ....

٣- ....

☑ **المشاعر التي استقرت في وجدانك هي:**

١- ....

٢- ....

٣- ....

☑ **النصائح التي تحب أن تنصح بها غيرك هي:**

١- ....

٢- ....

٣- ....




المشهد العاشر
١٠


نهايــة المأســاة
ولقــاء الأحبــة





★ المشهد كما وصفه القرآن.

★ تفاصيل المشهد.

★ رسائل من قلب الحدث.

١ برٌّ ووفاء.

٢ الجزاء بعد البلاء.

٣ الثناء من الدعاء.



المشهد كما وصفه القرآن

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (يوسف:٩٩-١٠١).



تفاصيل المشهد



وصلت القصة إلى نهايتها، واكتملت فصولها، حيث جمع الله شمل الأسرة الذي تفرق طول هذه السنين، وفي هذا المشهد يظهر تأويل الرؤيا التي رآها يوسف في صغره حينما رأى أحد عشر كوكبًا معهما الشمس والقمر، وقد استقبل يوسف أبويه استقبالًا يليق بهما وأجلسهما معه على سريره، وسجد له أبواه وإخوته الباقون. وقد كان هذا سائغًا في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له[1].

وأخذ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يعدد نعم ربه عليه ويذكرهم بفضل الله عليهم جميعًا، فقد جمع الله بينهم على صورة أفضل من التي كانوا عليها قبل وقوع البلاء، فمن حيث السعة فقد خرج يوسف من بوابة السجن إلى باب الوزارة، وجاءت أسرته من

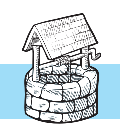
(١) جاء في الحديث أن معاذا قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال «**ما هذا يا معاذ؟**» فقال: إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحق أن يُسجد لك يا رسول الله، فقال: «**لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها**» أخرجه ابن ماجه في النكاح باب (٤)، وأحمد في المسند (٤/ ٣٨١).

حياة البدو القاسية إلى حياة الحضر المنعمة، **والأهم من سعة العيش، هو طهارة القلوب** من الحقد والغل والضغينة التي كان الشيطان بذرها في قلوب إخوته عليه، فها هنا اجتمعت القلوب وهي صافية وتلاقت الأبدان وهي سعيدة.

ثم يختم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ تذكيره لهم بدعاء جامع، يقول ابن كثير: هذا دعاء من يوسف الصديق، دعا به ربه عَزَّوَجَلَّ لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما منَّ الله به عليه من النبوة والملك سأل ربه عَزَّوَجَلَّ كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه مسلمًا حين يتوفاه، قاله الضحاك: وأن يُلحقه بالصالحين وهم إخوانه من النبيين والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[(١)].



(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٥٤).







رسائل من قلب الحدث

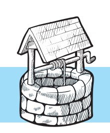
عند التأمل والتدبر في هذا المشـهد الأخير من القصة، تفيض علـى القلب شـلالات الإيمان، وتـشرق على النفس أنـوار اليقين، فيعلو الخُلُق، ويتهذب السـلوك، ويسـتقيم الفـؤاد، وعلى قدر ما يُهـدى الإنسـان إلى هذه المعاني، على قدر ما ينالـه من اللذة والمتعة والـسرور، التـي لا يـدرك معانيهـا ولا يتـذوق حلاوتهـا إلا من عرفها، ونال من ثمراتها، وفيما يلي شيء من هذه المعاني:



١ بـرٌّ ووفـاء:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ (يوسف:٩٩).

هـذا هو الإيواء الثاني من يوسـف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وقـد كان الإيواء الأول مـع أخيه بنيامين، قال تعـالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ (يوسف:٦٩)، وهنا يأتي موعد اللقاء الحاسم، والموعود الصـادق الذي وُعد به يوسـف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في صغره، وهو لقاء أبويه **هـذا اللقاء الحـار بعد هذه المـدة الطويلة** من الغيـاب، وبعد هذه المعاناة الشديدة، ولنتأمل هنا في أحوال الصابرين المحتسبين وهم يسـتمتعون بتلك اللحظـات السريعة، التي يتلـذذون فيها بعاقبة الصـبر على البلاء، فإن الشـدائد مهما طالت مدتهـا فهي إلى زوال ونسـيان، وما يبقى للإنسان من ذلك سـوى الجزاء، إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًّا فشر.

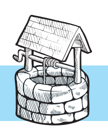


وتأمل هنا أدب يوسف مع ربه، وتقديمه للمشيئة في حديثه مع أبويه، رغم أنه الوزير المُمَكن الذي ربما لا يجد في نفسه ما يستوحشه،أو يخاف منه، بخلاف المغتربين الذين ليس لهم في البلاد قرابات يَحْتَمون بها، وبخلاف عموم الناس ممن ليس لهم علاقات ووشائج يلجئون إليها.

وقد كان السجود تحية الملوك وأضرابهم، ولم يكن يومئذ ممنوعًا في الشرائع وإنما منعه الإسلام لغير الله تحقيقًا لمعنى مساواة الناس في العبودية والمخلوقية. ولذلك فلا يعد قبوله السجود من أبيه عقوقا لأنه لا غضاضة عليهما منه إذ هو عادتهم(١).



(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٥٦).

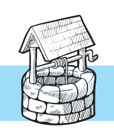


٢ الجزاء بعد البلاء:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (يوسف:١٠٠).

الإشارة في قوله: هذا تأويل رؤياي إشارة إلى سجود أبويه وإخوته له، هو مصداق رؤياه الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا سجدا له، ومعنى قد جعلها ربي حقًّا أنها كانت من الأخبار الرمزية التي يكاشف بها العقل الحوادث المغيبة عن الحس، أي ولم يجعلها باطلًا من أضغاث الأحلام الناشئة عن غلبة الأخلاط الغذائية أو الانحرافات الدماغية.

ومعنى أحسن بي أحسن إلى، وخص من إحسان الله إليه إحسانين هما يوم أخرجه من السجن ومجيء عشيرته من البادية. فإن ذلك الوقت كان زمن ثبوت براءته من الإثم الذي رمته به



امرأة العزيز وتلك منة، وزمن خلاصه من السجن فإن السجن عذاب النفس بالانفصال عن الأصدقاء والأحبة، وبخلطة من لا يشاكلونه، وبشغله عن خلوة نفسه بتلقي الآداب الإلهية، وكان أيضا زمن إقبال الملك عليه. وأما مجيء أهله فزوال ألم نفساني بوحشته في الانفراد عن قرابته وشوقه إلى لقائهم، فأفصح بذكر خروجه من السجن، ومجيء أهله من البدو إلى حيث هو مكين قوي.

وأشار إلى مصائبه السابقة من الإبقاء في الجب، ومشاهدة مكر إخوته به بقوله: من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي، فكلمة (بعد) اقتضت أن ذلك شيء انقضى أثره. وقد ألم به إجمالًا اقتصارا على شكر النعمة وإعراضًا عن التذكير بتلك الحوادث المكدرة للصلة بينه وبين إخوته فمر بها مر الكرام وباعدها عنهم بقدر الإمكان إذ ناطها بنزغ الشيطان[1].



(١) انظر: التحرير والتنوير (١٣/ ٥٧).

٣ الثناء من الدعاء:

قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾

(يوسف:١٠١).

لما أتم الله نعمته على يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بما خلصه منه من المحن العظيمة وبما خوله من الملك وعلمه من العلم، تاقت نفسه إلى الخير الأخروي الدائم الذي لا ينقطع، فقال: رب قد آتيتني من الملك من للتبعيض، أي: بعض الملك، لأنه لم يؤت كل الملك، إنما أوتي ملكًا خاصًّا، وهو ملك مصر في زمن خاص وعلمتني من تأويل الأحاديث أي بعضها، لأنه لم يؤت جميع علم التأويل سواء أريد به مطلق العلم والفهم، أو مجرد تأويل الرؤيا، ثم أثنى على ربه بقوله أنت وليي أي ناصري ومتولي أموري في الدنيا والآخرة تتولاني فيهما توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين أي توفني على

الإسلام لا يفارقني حتى أموت، وألحقني بالصالحين من النبيين من آبائي وغيرهم فأظْفَرُ بثوابهم منك ودرجاتهم عندك[١].

وقد جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب وإظهار الافتقار إليه والبراءة من موالاة غيره سبحانه وكون الوفاة على الإسلام أجلّ غايات العبد وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء[٢].

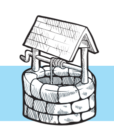
ومن هنا نعلم أن..

"من ترك لله شيئًا عوضه الله خيرًا منه"

فكما ترك يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ امرأة العزيز لله واختار السجن على الفاحشة عوضه الله أن مكنه في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، فتأمل كيف جزاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على ضيق السجن أن مكنه في الأرض ينزل منها حيث يشاء وأذل له العزيز وامرأته وأقرت المرأة والنسوة ببراءته وهذه سنته تعالى في عباده قديما وحديثا إلى يوم القيامة[٣].

وهذا الدعاء والابتهال من يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يأت منه في المشهد الختامي فقط، بل كان ملازمًا له عبر مشاهد القصة كلها،

(١) انظر: فتح القدير (٣/ ٦٨).
(٢) الفوائد (ص٢٠١).
(٣) روضة المحبين (ص٤٤٥).



ففي موقف الإغراء والفتنة والغواية يلجأ إلى ربه مستعيذًا به ملتجئًا إليه قائلًا: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (يوسف:٢٣)، **وفي الموقف الذي خشي على نفسه الضعف والتأثر** قال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ (يوسف:٣٣)، **وفي موقف تعريف نفسه لإخوته**، يبين فضل الله عليه ويشكر نعمته فيقول: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (يوسف:٩٠).

"**ثم يأتي يوسف ـ في مسك الختام للقصة كلها ـ متجردًا من كل شيء، نافضا عنه كل شيء، متجهًا إلى ربه، مبتهلًا إليه في انكسار وفي خشوع يناجيه فيقول**: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (**يوسف: ١٠١**)، **فما أجمل أن نتأسى بأخلاق الأنبياء والصالحين ممن رضي الله عنهم وارتضى لنا سيرتهم**"



التواصل بين القارئ والكتاب

ما هي الدروس التي تعلمتها من هذا المشهد؟ وما هي المشاعر والانطباعات التي استقرت في وجدانك أثناء قراءتك للمشهد؟ وما هي النصائح التي يمكن أن تنصح بها غيرك تطبيقًا لما تعلمته، وإعمالًا لواجب النصيحة مع من تحب له الفوز والنجاة؟

☑ الدروس التي تعلمتها هي:

١- ....

٢- ....

٣- ....

☑ المشاعر التي استقرت في وجدانك هي:

١- ....

٢- ....

٣- ....

☑ النصائح التي تحب أن تنصح بها غيرك هي:

١- ....

٢- ....

٣- ....

خاتمة

منظومة الإحسان

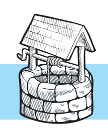
تعرضنا في ثنايا السـورة لدروس عديـدة، وعبر فريدة، وكان من ضمن هذه الدروس تكرر الحديث عن الإحسان والمحسنين، فقد جاء ذكرها في السورة في خمسة مواضع كما يلي:

١ الموضـع الأول:

جاء ذكر الإحسان في معرض حديث القرآن عن نعم الله على يوسـف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وما وهبه الله من العلـم والحكمة، وأن هذا كان جزاءً له على إحسـانه، قال تعـالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف:٢٢)، وهو بهذا الوصف قد تطابق مع أوصاف كثير من أنبياء الله ورسله ممن كانوا من عباد الله المحسنين، قال تعالى عن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (القصص:١٤). وقد تواتر ذكر القرآن للأنبياء والمرسلين في مقـام العلو والرفعة جزاء

على إحسانهم، ففي سورة الصافات ذكر الله نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الصافات:٨٠)، ثم جاء ذكر إبراهيم في نفس السورة بقوله: ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الصافات:١٠٥)، ثم انتقل السياق للحديث عن موسي وهارون، فقال أيضًا: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الصافات:١٢١)، ثم ختمت السورة حديثها عن إلياس، فقالت: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الصافات،١٣١)، وقال عن جمع من الأنبياء: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأنعام:٨٤).

والقاعدة مطردة مع كل المحسنين وإن لم يكونوا من الأنبياء، قال تعالى عن المجاهدين: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت:٦٩)، وقال تعالى عن من آمن وأسلم من القساوسة والرهبان: ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة:٨٥)، وقال عن أهل الجنة: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الزمر:٣٤)، وقال عن بشارة المحسنين: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ



كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الحج:٣٧)، وقال عن رفع الحرج عنهم: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة:٩١)، وقال عن رحمته بهم: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف:٥٦)، وقال عن تمني غيرهم أن يكونوا منهم: ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الزمر:٥٨).

٢ الموضع الثاني:

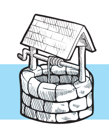
جاء ذكر الإحسان في هذا الموضع كدلالة على الإحسان في التعامل مع المخلوقين، والفرق بين هذا الموضع والذي سبقه أن الإحسان هنا جاء كشهادة من صاحبيه في السجن، وهؤلاء لا يدركون من معنى الإحسان إلا الجانب الإنساني فقط، من السمت الحسن، والخلق الرفيع، والمعاملة الطيبة، وهذا ما جعلهما لا يترددان في عرض قضاياهما عليه، وسؤالهما إياه عما يحتاجان إليه، فقال تعالى حاكيًا عنهما: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ

أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (يوسف:٣٦).

٣ الموضع الثالث:

جاء هذا الموضع ليقرر قاعدة أن الجزاء من جنس العمل؛ لأن المتأمل في قصة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ربما يثور لديه أنواع من التساؤلات، التي تتمحور حول معنى الابتلاء والهدف من تقديره على العبد، وهل هذه الشخصية الرائعة التي تتمتع بجميل الأوصاف، وسمو الأخلاق، يكون جزاؤها الطردَ والرق والإبعاد والسجن، وسائر ما تعرض له من محن، وما كان القرآن ليقص علينا هذه القصة ويترك هذه الأسئلة مفتوحة دون أن يعالج هذه الخلجات داخل النفس الإنسانية، لذلك جاء القرآن في هذا الموضع ليوضح لنا أن جزاء الإحسان لا يكون إلا إحسانًا، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (يوسف:٥٦).

إذن فجزاء الإحسان في قصة يوسف هو التمكين، ورأينا كيف مكن الله له تمكينًا لم يكن في حسبانه، ولم يدُرْ في خلده يومًا، وحتى



تستقر هـذه القضية في نفوسـنا، دعُونـا نترك قصة يوسـف جانبًا ولنضرب أمثلة أخرى وردت في القرآن لنرى كيف جلَّى لنا القرآن هذه المسألة؛ ففي سورة هود، وعند أمر الله لنا بالصبر وحثنا عليه، قال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (هود:١١٥). وفي سورة الأعراف قال تعالى حاكيًا عن بني إسرائيل: ﴿ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (الأعراف:١٦١). وفي سـورة التوبة قال تعالى موضحًـا حال من تعذر عليهم اللحاق بالنبي في الغزوة من أهل المدينة، وإنهم ارتقوا لمنزلة المشاركين في الغزو، لِمَا عندهم من إحسـان: ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (التوبة:٩١).

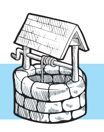
٤ الموضـع الرابـع:

هـذا الموضـع بالـذات، مـن أروع مـا يمكـن أن يمـر عليك في القصـة بأكملها، لأن الشـهادة ليوسـف بالإحسـان جـاءت هذه المـرة من إخوته -وهم يجهلون شـخصيته- والأهـم من ذلك أن

شهادتهم له بالإحسان جاءت وقت أن كان العزيزَ الممكن، قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف:٧٨)، فالذين رأوه في السجن شهدوا له بالإحسان، وظل كما هو على إحسانه بعد أن صار وزيرًا مرموقًا..

" فالنفسية المحسنة لا تغيرها المناصب، ولا تؤثر فيها الوجاهات "

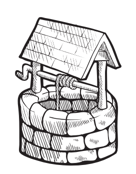
من هنا جاءت آيات القرآن في مواضع مختلفة، تؤكد على حقيقة حب الله للمحسنين، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة:١٩٥)، وقال في سورة آل عمران: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٤)، وقال في سورة المائدة: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة:١٣)، وقال أيضًا: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ



وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (المائدة:٩٣).

٥ الموضـع الخامـس:

يتشابه هذا الموضع مع الموضع الثالث، إلا أن الفرق الجوهري بينهما أن الكلام هنا منسوب ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في ربطه بين الصبر والتقوى وبين الإحسان، وبالتالي فقد قرر هذا الموضع نفس قاعدة أن الجزاء من جنس العمل، بَيْد أنها هنا من كلام يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، بينما كانت هناك من توجيه الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (يوسف:٩٠).



كما أن قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كانت ولادة جديدة لإخوته، فقد شهد لهم القرآن بالتغير في الأخلاق والسلوك والمعاملة، فنحن أولى بهذه الولادة، وبهذا التغيير، لذا وجب علينا أن نقف مع أنفسنا وقفة صادقة لكي نحدد القرارات التي يلزم اتخاذها من أجل أن تتغير حياتنا للأفضل -بإذن الله-.

أولًا: محور العلاقة مع الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

هذا المحور هو سر سعادة العبد في الدنيا والآخرة، فمن حسنت علاقته بربه، أرضاه الله عن نفسه، وأرضى عنه من حوله، كما جاء في الحديث: «**إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا، قَالَ لِجِبْرِيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا، فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: أَنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا، فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّونَهُ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ..**».

ومن ثمَّ كانت وقفتنا مع هذا المحور من خلال عدد من الأسئلة، نأمل أن تأتي إجاباتها بمثابة قرارات حاسمة في حياتنا.

١ مـا هو موقفي تجاه الواجبـات والفرائض التي افترضها اللّٰه علـيَّ، ومعلوم أن رأس هــذه الفرائض الصلاة، فما هو مدى إقبـالي عليها وحبي لهـا، إذ أنها معيار النجـاح والفلاح في الدنيا والآخرة؟

....

....

....

....

٢ ما هــو موقفــي تجـاه المحرمـات والنواهي التــي نهاني اللّٰه عنها؛ خصوصًا تلك المحرمات التي تندرج تحت بند الكبائر والفواحش؟

....

....

....

....

٣ ما هو نصيبي من الدعاء والمناجاة التي أتوجه بها إلى ربي؟ وهو القائل في كتابه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾، فليس هناك أتعس من عبد حُرم من التلذذ بمناجاة ربه.

....

....

....

٤ ما هي طريقة تعاملي مع كلام ربي الذي أودعه بين دفتي المصحف؟ هل أقرأه؟ هل أفهم معانيه؟ هل أعمل بأحكامه؟ ومعلوم أن القرآن مفتاح الهداية، وبوابة القرب من الله عَزَّوَجَلَّ.

....

....

....

٥ ما هو قدر تحصيلي من علوم الشريعة وأحكام الدين والتي لا يسعني -كمسلم- أن أجهلها؟

....

....

....



ثانيًا: محور العلاقة مع النفس:

إذا كان من المهم معرفة خصائص النفس البشرية عمومًا، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في ثنايا القصة، فمن الأهم معرفة العيوب الخاصة بشخصي، وفيما يلي بعض الأسئلة التي من الممكن أن تساعدني في ذلك:

١ ما هي الذنوب والمعاصي التي يسهل عليَّ الوقوع فيها، والتي أحتاج إلى استعدادات خاصة للوقاية منها، فهذه المعاصي بالنسبة لي تمثل نقطة ضعف؟

....

....

....

٢ ما هي الثغرات التي يدخل إليَّ الشيطان من خلالها؟ وأحتاج إلى نوع من اليقظة والتنبه حتى لا يهاجمني عن طريقها؟

....

....

....

٣ مــا هي المشاكل النفسية التــي أعاني منها وقد تكون سببًا في اضطراب حياتي؟

....

....

....

٤ ما هي الصفات والطباع غير الجيدة الموجودة في شخصيتي وأحتاج إلى التخلص منها؟

....

....

....

٥ مــا هي الصفات الحميــدة التي حباني اللّه بهــا وأحتاج إلى الحفاظ عليها وتطويرها؟

....

....

....



ثالثًا: محور العلاقة مع الآخرين:

الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، ولا يستطيع أحد أن يعيش بمفرده بعيدًا عن غيره من البشر، لذلك أرشدنا القرآن إلى أهمية التواجد مع أهل الصلاح فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وحذرنا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خطورة الرفقة الفاسدة فقال: «**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**».

وفي هذا المحور يمكن أن نسأل أنفسنا ما يلي:

١ ما هي علاقتي بأسرتي الخاصة (الوالدين - الإخوة والأخوات - الزوجة والأبناء)، وما هي علاقتي بسائر أقربائي؟ وإن كانت هناك شروخ أسرية أو قطيعة رحم فما هو السبيل لعلاجها؟

....

....

....

٢ ما هي علاقتي بجيراني في السكن، فالجار له من الخصوصية والحُرمة ما ليس لغيره؟

....

....

....

٣ ما هي دائرة أصدقائي المقربين؟ هل هي صحبة صالحة تعين على الخير وتدعو إلى البر؟ أم صحبة سيئة تحرض على الفساد وتتعاون على الشر؟ وإن كانت الثانية فما هو السبيل لتغييرها وتقليل الاختلاط بها؟

....

....

....

٤ هل أقوم مع غيري بعمل خيري تطوعي، أنفع به غيري وأرجو به ثواب ربي؟ هل فكرت في أن أعمل مع فريق عملًا جماعيًّا في باب مكافحة الإدمان أو الإباحية مثلًا، أو دعوة الشباب إلى الالتزام بالأخلاق والقيم والمبادئ، أو رعاية الأرامل واليتامى والمساكين؟

....

....

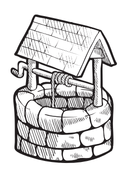
....



أخي الكريم... أختي الكريمة...

بعد الانتهاء من الإجابة على الأسئلة السابقة، لا تترددوا في أن تسلكوا سبيل العلاج في كل ما يحتاج منكم إلى ذلك، وإن عجزتم عن العلاج بمفردكم، فلا تترددوا في أن تستعينوا بمن تثقون في ديانته وأمانته لمساعدتكم فيما تحتاجون إليه من مساعدة.

نسأل اللّه عَزَّوَجَلَّ أن يربينا جميعًا من عنده، وأن يسترنا وإياكم في الدنيا والآخرة.

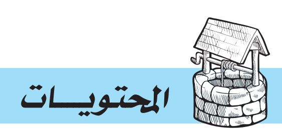




المراجع

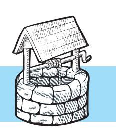
- تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى.
- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر.
- فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة الأولى.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان.
- محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، دار الكتب العلميه - بيروت، الطبعة الأولى.

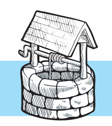
- تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى.
- في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، دار الشروق - بيروت- القاهرة، الطبعة السابعة عشر.
- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار المعرفة - المغرب، الطبعة الأولى.
- الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية.
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- سيكلوجية القصة في القرآن، نقرة التهامي، الدار التونسية للتوزيع، الطبعة الثانية.
- قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح، أحمد موسى سالم، بيروت، دارالجيل.
- ديوان أمير الشعراء أحمد شوقي، طبعة مكتبة الآداب. القاهرة.



المحتويات







تم بحمد الله



التواصل بين القارئ والكاتب

يسعدني ويشرفني أن أتلقى أسئلتكم واستفساراتكم بخصوص ما ورد في الكتاب أو في غيره، كما يسعدني أن أستقبل اقتراحاتكم من أجل تطوير «الملحمة» وتحسينها حتى تظل «الملحمة» تعبيرًا عما يجيش في صدورنا -نحن الشباب-، ولكي نعالج من خلالها -بإذن الله- ما يطرأ على حياتنا من مشكلات وأزمات.

☑ للتواصل عبر الإيميل: *shahat2007@gmail.com*

☑ للتواصل عبر الصفحة الشخصية للمؤلف:

https://www.facebook.com/profile.php?id=1714971924

